

إزيدورا.. و الأوتوبيس

و قصص أخرى

محمد سلماوي

إزيدورا .. والأوتوبيس

سلماوي ، محمد .

إزيدورا .. والأوتوبيس .. وقصص أخرى / محمد سلماوي

. ــ ط 1 ــ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2008

212 ص ؛ 21 سم .

تدمك : 5-438-427-977

1 – القصص العربية القصيرة

أ ــ العنوان 813,01

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202

فاكس: 23909618 202 ـ ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 21343 / 2008

الطبعة الأولى : ذو القعدة 1429هـ ـ نوفمبر 2008م

الإخراج الداخلي والغلاف الفنان : أحمد اللباد

إزيدورا .. والأوتوبيس

.. وقصص أخرى

محمد سلماوي

الدار المصرية اللبنانية

المحتويات

تقديم

«محمد سلماوي»..ربع قرن من السرد القصصي

في هذا الكتاب بعض من أجمل القصص القصيرة التي خطها قلم الأديب الكبير« محمد سلماوي » ، تصدرها الدار المصرية اللبنانية في ذكرى مرور ربع قرن على صدور أول مجموعة قصصية له في عام 1983م ؛ تقديرًا لعطاء وإبداع هذا الكاتب الكبير . .

وخلال هذه الفترة الطويلة من الإبداع ، ترك « سلماوي » بصمته واضحة على فن القصة عبر مجموعاته الجميلة : « الرجل الذي عادت إليه ذاكرته » ، و« وكونشرتو "الناي» ، و«باب التوفيق» ، و«رسائل العودة»، و«وفاء إدريس» ، وأخيرًا «شجرة الجميز» . هذه المجموعات، بالإضافة إلى المكانة الراسخة لـ « محمد سلماوي » في الكتابة المسرحية ، جعلت من « سلماوي » أحد أهم الكتّاب المعاصرين، ليس في مصر وحسب ، بل على مستوى الوطن العربي، كما صدر له العديد من المقالات الفكرية التي تعالج وتشتبك مع قضايا الواقع الثقافي والاجتماعي في الوطن العربي .

وقد ترجمت كتب « محمد سلماوي » ومجموعاته ومسرحياته إلى اللغات الأجنبية ، باعتبارها تقدِّم الوجه المشرق للإبداع العربي،

وبهذه المختارات تسهم الدار المصرية اللبنانية في الاحتفال بالإبداع المميز والجميل لـ « محمد سلماوي » . . وهي قصص ، تفصح تارة ، وتشير تارة ، فتتنوع بين الرومانسي ، والمثالي ، والواقعي والسياسي ، قصدنا أن تشكل صورة بانورامية لإبداع « محمد سلماوي» في هذا الفن الجميل والصعب .

الناشـــر



إزيدورا وحابي

في زيارتي الأخيرة لمدينة الموتي «تاأونت»، أوتونا الجبل بالمنيا، توقفت طويلاً داخل مقبرة الفتاة إزيدورا ،التي أقام لها والدها الحاكم الروماني الحزين لوفاتها، ضريحًا صغيرًا على الطراز المصري القديم، قبل عشرين قرنًا من الزمان . . فقد ماتت إزيدورا غرقًا في النيل وهي في سن الـ 16، بعد أن أحبت ضابطًا مصريًا اسمه «حابي» كان يعمل حارسًا في بلاط الحاكم. . وفي غرفة الدفن بالمقبرة شاهدت مومياء إزيدورا بكامل زينتها راقدة على سرير ،صنع على شكل أسد من الطراز الفرعوني الأصيل، وتعلوه قوقعة. . وعلى عمودين يحتضنان باب الغرفة كتب والد الفتاة مرثية في ابنته الشابة، التي ابتلعتها مياه النهر كما ابتلعتها لوعة الحب قال فيها:

«حقا يا إزيدورا إنهن الحور من عرائس النهر اللاتي شيدن لك هذه المقصورة . . . . «نيلو» كبرى بنات النيل هي التي زينت مقبرتك بتلك القوقعة الرائعة الجمال كالتي يضمها النيل في أعماقه . . لن أقدم لك يا ابنتي

القرابين المشفوعة بالأنين لأنك غدوت في عداد الآلهة فأنت شهيدة . . وداعًا يا صغيرتي . . ها هي الفصول من كل عام تهدي إليك الماء الطهور . . الشتاء يقدم لك اللبن الأبيض وزيت الزيتون ، ويتوجك بزهر النرجس الزكي ، والربيع يبعث إليك برضاب النحل والوردة المتفتحة التي تحبينها ، والصيف يهدي إليك شراب الكروم الخارج من معاصر باكوس إله النبيذ» .

وفي المساء وأنا جالس على شاطئ النيل خرج طيف إزيدورا من بين موجات الماء الراحلة أبدًا إلى الشمال، لتقص عليّ إزيدورا وحبيبها قصتهما التي وقعت أحداثها قبل ألفي سنة.

إزيــدورا

كان لقاؤنا الأول في الحديقة . . كنت أقف على حافة العشب الأخضر وأمامي ينساب النيل العظيم، تعكس تموجاته الدقيقة وسط نسمة المساء التي بدأت تسري في الهواء، ألوان قرص شمس المغيب ذي الأطياف المتعددة من الأصفر الواهن إلى البرتقالي الحزين إلى الأحمر الدامي . . فجأة وجدته أمامي كان شابًا يافعًا ممشوق القوام، كأنه تمثال صنعته يد مثَّال بلاط قيصر من أحجار الجرانيت المصرية الوردية الداكنة.

رفع خوذته النحاسية في احترام وقال:

آنستي . . . . لقد أوشك النهار على الانقضاء، وأخشى عليك البقاء هنا في الليل وحدك.

قلت: أنت . .

قال: حابي من حرس القصر . . . . ألا تعرفينني؟

قلت: أعرفك بالطبع، لكني كنت أحاول فقط تذكر اسمك . كنت

أعرف أن هناك صلة ما بينك وبين هذا النيل العظيم.

قال: حابي ليس إله النيل كما يقول علماؤكم الرومان، وإنما هو إله الفيضان..

قلت: أعرف ذلك جيِّدًا... وأنا لا علاقة لي بالرومان أو علمائهم.

قال: أنت إزيدورا ابنة القائد الروماني لهذا الإقليم في صعيد مصر.. ولابد أن تعليمك روماني كاسمك وكدمائك.

قلت: بل اسمي يقول إنني هبة إيزيس ذاتها، أليس هذا معنى كلمة إزيدورا؟!

وصمتت برهة، ثم قالت: ثم إن هناك روحي؟

قال: فلتحفظها الآلهة من كل سوء.

قلت: إن روحي مصرية مثل روحك تمامًا، لقد ولدت على ضفاف هذا النهر الجميل وشاهدت إله الفيضان الأعظم حابي يفيض بالخيرات 16 مرة حتى الآن، فكم مرة رأيته أنت؟

قال وقد التمعت عيناه ببريق لا تعرفه إلَّا عيون المصريين:

عمري 20 عاما..

وسرت في أوصالي رجفة لا شعورية، لاحظها حابي، فقال على الفور: لقد بدأت نسمات المساء تتجمع حول أسوار القصر ،وربما كان من الأفضل أن تدخلي القصر قبل أن تتسلق تلك النسمات الباردة الأسوار وتدخل بلا استئذان.

قلت: إنني أرتجف فقط عندما أنفعل، أما عن نسمات الليل فلا أمانع من فتح كل الأبواب للنسمات العليلة التي يرسلها إلينا النيل في المساء.

قال: أخشى عليك مما يأتي في أعقاب هذه النسمات، والذي تحمله رياح الليل العاتية.. فاسمحي لي بأن أصحبك إلي القصر لتكوني في أمان.

وقبل أن أرد بكلمة كان حابي ينحني على العشب الأخضر ليلتقط شال الكتان ذا اللون السمني، الذي غزلته فتيات معبد حورس ويضعه برقة في مكانه على كتفيَّ العاريتين، ثم مشى أمامي وكأنه يريني الطريق الذي عليَّ أن أسلكه، فأخذت أنظر إلى ظهره العاري الذي رسمت عضلاته خريطة أنهار ووديان بدت في لون نيل مصر وقت الفيضان بوديانه الخلابة.

حابي

استدعاني رئيس الحرس وقال لي: إن عليّ أن أتوجه على الفور إلى الشاطئ الغربي للقصر، لكي أصحب إزيدورا في زورق بالنيل حتى إذا ما قاربت الشمس على الغروب عدت بها على الفور قبل أن تخرج التماسيح من الماء إلى دفء الشاطئ.

قلت لقائد الحرس: تعلم أن عليَّ الليلة حراسة بوابة القصر، فمن الذي طلب أن أكون مع إزيدورا؟

قال: أنا الذي أطلب ذلك، فهل إخالك تعترض على ما يصدر إليك من أوامر؟!

والحقيقة أنني لم يكن لديّ أي اعتراض على أمر رئيس الحرس، لكني كنت فقط أريد أن أعرف إن كانت إزيدورا هي التي طلبتني أم لا.. وها قد خاب أملي.. ذلك الأمل الذي أججته إزيدورا بنفسها يومًا بعد يوم منذ لقائنا قبل شهر كامل على حافة النيل، في الجانب الغربي من حديقة القصر، لكني ما إن وصلت إلى زورقها حتى كان وجهها يتهلل فرحًا

لرؤيتي، كما كان يحدث في كل مرة، ويدت سنواتها الـ16 تتراقص أمامي لتفضح مشاعرها.

كانت ترتدي ثوبًا أبيض رقيقًا يظهر مفاتن جسدها ،ذكرني بذلك الذي ترتديه زوجة حاريحور في رسم بردية كتاب الموتي ،الذي أراني إياه كاهن المعبد بأبنوب، حين كنت صبيًا فتصورته أجمل رسم في الوجود ،وقبل أن ألقي عليها التحية سبقتني بالقول: كم أنا سعيدة أنك أنت الذي ستصحبني اليوم!

وفي الزورق وقد أحاط بنا النيل من كل جانب، سقطت كل الحواجز التي تفصل بين هذه الأميرة الآتية من عالم الأحلام، فتلامست أيدينا وتعانقت ذراعانا وتداخلت شفتانا، ونادت عليّ باسمي الإلهي، ففاض النهر في دفقات متتالية عمّدت روحينا وجمعت بين قلبينا في رباط مقدس.

لم تنطق بكلمة، ولم أنطق أنا، لم يكن هناك مجال للكلام، كانت المشاعر هي المتربعة على عرش هذا اللقاء، الذي طردت منه كل الكلمات ونفيت الأفكار خارج أسواره.

وبدأت الشمس تميل في الأفق مؤذنة بدخول رع إلى مكمنه الليلي، ليفسح المجال لنوت إلهة السماء أم كل من إيزيس وأوزوريس وست ونفتيس، لتغطي العالم بلونها الداكن الذي تبرق فيه النجوم.

قلت: حان موعد العودة.

قالت لماذا نلتقي دائمًا في الغروب؟

قلت: لعل ذلك يكون إيذانًا بشروق قادم..

قالت: أخشى ألَّا نشهد أبدًا الشروق!

قلت: رع مكانه دائمًا في قبة السماء، ومهما منح نوت من ساعات قليلات في الليل فهو لابد عائد ثانية مع الصباح.

فأحاطت عنقي بذراعيها المرمريتين الملساوين، وبدا جسدها الرقيق وكأنه معلق في رقبتي كمفتاح الحياة الذي يتدلى من عنق الفتيات.

قالت: فلنـــذهـــب إلـــى حيث أشعـــة الشمس الدائمة. . . . حيث لا ليل ولا ظلام.

والتصقت شفتانا واضعة ختم الإقرار بهذا الرباط الأبدي، الذي صنعته لنا الأقدار.

إزيدورا

هرعت داخل أروقة القصر إلى أن وصلت إلى غرفة أبي، فسقطت تحت قدميه صارخة: ماذا فعلت بي يا أبي؟ لماذا فعلت ذلك؟ لماذا؟

قال: هل جننت يا إزيدورا؛ كيف تتزوجين أحد أفراد حرس القصر؟ أنت سليلة أباطرة روما ووالدك هو حاكم أعالي مصر، ألا تدركين؟!

قلت: فلتنهار أعمدة روما فوق رءوس أباطرتها جميعًا! لقد ولدت هنا وعشت حياتي كلها هنا، ولن تكون لي حياة لا في روما ولا مع أحد من أهلها!

قال: إزيدورا. . . . كيف تجرؤين؟!

قلت والدموع في عيني والدم يصعد إلى رأسي: أرجوك يا أبي أعد حابي من حيث أرسلتموه! لن تكون لي حياة بدونه.

قال وعلى وجهه ابتسامة حانية: ستعتادين الحياة بدونه يا ابنتي، وسرعان ما تنضجين وتعرفين الحياة بعيدًا عن أحلام الشباب الطائشة هذه،

فلا تتحدثي في هذا الموضوع ثانية لا معي ولا مع غيري وإلاَّ نالنا جميعًا الأذى.

فصرخت بكل ما تبقي من قواي التي كانت قد بدأت تخور:

حابي! حابي! علَّه يسمعني في منفاه البعيد فيجيء إليّ، أو تسمعني الآلهة فتأخذني إليه، لكن أبي أطبق على فمي وتطاير من عينيه شرر الغضب وهو يقول: سأطبق في المرة القادمة على أنفاسك إذا نطقت باسمه مرة أخرى.

ودارت الدنيا بي، وثقلت دماغي فسقطت مغشيًا عليَّ..

حابي

تركت الخدمة بعد أن تقرر نقلي إلى شمال البلاد.. هربت من الحرس، فلست أريد أن أخدم في الشمال ولا في أي مكان آخر.. إني أمضي الآن وقتي جالسًا على حافة النيل أحدث هذه المياه، أليست قادمة من عندها في الجنوب، إذن فلماذا لا تخبرني عما ألم بها؟ تلك الموجات الصغيرة التي كثيرًا ما هدهدت جسدينا داخل الزورق، تلك الموجات التي أراها الآن أمامي وقد وصلت إلى الشمال لتلقي بنفسها في النهاية في غياهب البحار الهوجاء انتحارًا على فراقنا، لكن لماذا أصيبت بالبكم فلم تعد ترد على سؤالي؟ ها هو الأفق يشتعل أمامي بالنار والأرجوان، فتحترق أمام عيني مشاهد لقاءاتنا في الغروب وتتحول إلى رماد ولا يجيبني أحد؟ ماذا ألم بك يا إزيدورا؟ كتبت اسمك على أجنحة الحمام عله يصل في طيرانه إليك، كتبت اسمك على رمال الصحراء وعلى حوائط معبد الكرنك بحروف سرية، لا يعرفها إلَّا الراسخون في العشق فسخرت مني جميع آلهة الرومان،

ورددت السماء قهقهة ضحكاتهم ولم يجبني أحد. . أين أنت يا إيزيس. . ألم تسمي حبيبتي باسمك؟ أليست إزيدورا هي هبة إيزيس؟ لن أقبل إلّا أن تعيديها إليّ. . أيها النيل العظيم سأظل هنا في مكاني على شاطئك حتى تأتي لي بحبيبتي إزيدورا. . لن أبرح مكاني قبل أن يستجيب إلى دعواتي إله الفيضان الذي سميت باسمه فيأتي لي بإزيدورا محمولة على موجاته.

إزيــدورا

لن أبقى في هذا القصر يومًا واحدًا بعد الآن، لقد تحملت العذاب شهورًا طوالًا، وحان الآن وقت الخلاص، لابد أن إيزيس قد استجابت لدعواتي. . ها هو إله الفيضان حابي الحبيب قد جاء يأخذني إلى حبيبي حابي، إني قادمة إليك يا حبيبي. . قادمة إليك يا حابي وحابي سيوصلني إليك أينما كان منفاك البعيد، فالفيضان يغمر كل شبر من أرض مصر الطيبة التي نشأت على ترابها، وتغذيت من ثمارها ولن يخفى عنه مكان لا تطوله مياهه المقدسة.

جاءت خادمتي على وقع أقدامي، وأنا خارجة من غرفتي إلى ردهة القصر، لتصاحبني أينما ذهبت تنفيذًا للأوامر الصادرة إليها بألّا تتركني وحدي. . يا للأذي الذي سينالها اليوم من جراء ما أنا عازمة على فعله!

لم أعر الخادمة اهتمامًا، ولم أجب عن تساؤلاتها التي لم أسمعها، فقد انطلقت أجري من القصر إلى حافة الشاطئ الغربي، الذي كنا نلتقي عنده في الغروب. . كانت الشمس قد بدأت تميل وكأنها تريد أن تربت على رأسي لتبارك فعلتي، وكانت موجات الفيضان المتدفقة تناديني لتوصلني

إلى حبيبي، ودون أن أنظر ورائي إلى أفراد الحرس، الذين نادت عليهم الخادمة فبدأوا يتقدمون في خطى سريعة نحوي، لكني قفزت بين ذراعي حابي فأحاطتني موجاته على الفور ونزلت بي إلى باطن النهر في عناق حاني.

حابي

يقولون إنني جننت، لكني أعرف جيِّدًا ما أقول.. لقد رأيتها.. نعم رأيتها.. كنت جالسًا في مكاني هذا على حافة الشاطئ في ساعة الغروب، فحدثني حابي وقال: ها هي حبيبتك! وصعدت موجات الفيضان بجسد إزيدورا الرقيق من باطن النهر إلى السطح.. كان وجهها مشرقًا وهي تنساب مع المياه.. رفعت ذراعيها المرمريتين تريد أن تحتضنني قبل أن ينتشلوا جسدها من الماء.. لقد أخذوها مني ثانية.. لكني هذه المرة أعرف أن روحها معي.. لست مجنونًا.. هي معي وستظل دائمًا معي.

البقية في الأسبوع المقبل

كان حمام السباحة ملاذه الأخير، لم يعد يطيق تلك الحرارة التي زادت هذا الصيف عن الأعوام السابقة، كان بيته مكيفًا مركزيًا وكذلك مكتبه، وسيارته أيضًا كانت مكيفة، لكن الطبيب أخبره أن لديه حساسية خاصة من الهواء المكيف، وأن ذلك ما تسبب في إصابته بهذا الالتهاب في الشعب الهوائية، لذا كان عليه أن يقلع عن استعمال التكييف إلى أن يشفى تمامًا.

وكأنه كان بحاجة إلى هذه الحساسية ليضيف إلى نفسه همًا جديدًا فوق همومه السياسية التي كانت في الفترة الأخيرة الموضوع المفضل لتلك النوعية الحقيرة من الصحف التي تسمى نفسها بالمستقلة، بينما هي أكثر معارضة من صحف المعارضة نفسها وأقل تأدبًا في أسلوبها.

نزل حمام السباحة وهو يفكر كم تغيرت الدنيا منذ تولي مسئوليته الرفيعة قبل 18 عامًا، كان أصحاب المسئولية لهم هيبتهم في الماضي، أما الآن فباستطاعة كل من يريد توجيه الاتهام لأي مسئول أن يفعل ذلك، دون أدنى محاسبة حتى صار جميع المسئولين مستباحين بلا وازع من ضمير،

ولا رادع من قانون، وإذا تحدثت في ذلك قيل لك إنها حرية الصحافة، فأية حرية هذه التي تقطع الناس إربًا بهذه الطريقة ولا تحترم من يتولون المناصب المهمة، والذين هم رمز البلاد وعنوانها المضيء؟!

لم يكن يعرف ماذا يفعل مع تلك الصحف التي ظلت تعود إلى التهجم عليه كالمدمن الذي لا يستطيع أن يتخلص من دائه، وكلما رد عليهم كانوا يعودون إلى الكتابة ثانية في الموضوع وينهون مقالاتهم الرخيصة بعبارة «**والبقية في الأسبوع المقبل**»، البقية في حياتكم يا أولاد الكلاب! كم كان يتطلع إلى اليوم الذي يذهب إلى التعزية فيهم، هؤلاء الأفاعي الذين لا يتركونه في حاله.

كان كلما أصدر قرارًا، قالوا إن وراءه مصلحة شخصية، وإذا تعامل مع بنك، قالوا إنه استغلال نفوذ، حتي حياته الشخصية لم يسكتوا عنها، دون مراعاة لحرمات الناس، كان يشعر بأنه كان مستهدفًا من دون المسئولين جميعهم، فإذا نشروا أنه بنى لنفسه قصرًا هنا أو هناك، أو أنه أسس مشروعًا تجاريًا باسم زوجته أو ابنه، فمثل هذا الخبر كان يقفز على الفور إلى قمة الصفحة الأولى ليصبح هو «مانشيت» الجريدة.

كان في بعض الأحيان يقول لنفسه : وماذا يهم، إنني كما أنا لم ينلني أي أذى، فليقولوا ما يريدون ولأفعل أنا ما أريد.

لقد تمكن ذات مرة من النيل من أحد هؤلاء الصحفيين سليطي اللسان تحت إلحاح بعض المقربين منه، فاستأجر بعض البلطجية الذين ترصدوا تحركاته وتهجموا عليه وسط الشارع فأوسعوه ضربًا دون أن يتم القبض عليهم، لكن ذلك لم يأت بالأثر المطلوب، في الوقت الذي كانت زوجته

تصرخ فيه كل يوم «الناس كلها أكلت وشي . . في النادي وعند الكوافير ، بيقولولي إزاي جوزك ساكت على كده ، ما تشوفولهم تهمة ولا قضية وتسكتوهم!» . . لكنه لم يكن يريد أن يلجأ إلى ذلك رأفة بهؤلاء الأوغاد . .
أما سكرتيرته الحسناء التي كشفت إحدى الصحف أنه على علاقة بها ، فقد كانت تقول له إنه لا يكفي تلك الشقة التي اشتراها لها ليتقابلا فيها بعيدًا عن أعين الناس ، ولم تكن تكفي السيارة التي باسمها أو الهدايا ، وأن عليه أن يبرئ ذمتها أمام المجتمع ،لكنه كان يعلم أن كل رد سيقدمه سيمثل فرصة للصحيفة للرد على الرد ، فيكون بذلك قد قدم لهم مادة إضافية تطيل من أمد الموضوع فيستمر النشر أسبوعًا جديدًا أو أسابيع .

صعقته شمس الظهر ، فبلل رأسه بالماء دون أن يخرج من الحمام ، نظر إلى قصره ذي الطوابق الثلاثة ، والبرج الذي يعلوها والذي كثيرًا ما كان يتناول فيه الشاي وقت الغروب ، تذكر زوجة أحد السفراء الأجانب التي سألته : على أي طراز بنى هذا القصر؟ إنه لا يبدو لي على طراز معروف ، هل هو طراز مصري لا نعرفه؟

كانت امرأة سخيفة دعاها وزوجها على العشاء قبيل سفره إلى بلادهما على رأس وفد رسمي ، كانا قد أقاما حفل استقبال على شرفه بالسفارة ، فأراد أن يرد لهما الدعوة وأن يريهما كيف تكون القصور ، لكنه لم يعرف كيف يجيب عن سؤالها ، ما لها والطراز إذا كان القصر أفخم من مبنى السفارة التي يعمل بها زوجها . . كان يعرف الكثير حول مسئولين آخرين ، ولو عرفت تلك الصحف ما عرف لتركته لشأنه والتفتت إلى الآخرين ، لكنه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك فهو على خلق وصاحب مبدأ .

لقد نجح على مدى 18 عامًا في أن يصل بثروته إلى ما يقرب من 232 مليونًا، كل ما كان يتمناه هو أن يكمل ربع المليار ليس أكثر؛ أي 250 مليونًا، وبعد ذلك كان سيترك العمل العام ويكسر وراءه جميع القلل التي سيجدها في قنا، فمن ذلك المجنون الذي يقبل أن يتهم يوميًا في ذمته، ويشتم وتهان كرامته بهذا الشكل على مدى سنوات أمضاها في خدمة الوطن.

لم يكن ما يتمناه بعيد المنال، 18 مليونًا فقط لا غير، لو كان قد أمسك يده قليلا في السنوات الأخيرة لكان عنده الآن هذا المبلغ، فقصره هذا تكلف 12مليونًا، اشتراه بتسعة ملايين وأنفق عليه من أثاث وتحف وديكورات ما لا يقل عن ثلاثة ملايين، أما بيت مارينا الذي هدمه وأعاد بناءه بحمام السباحة الجديد وصالة الرياضة المجهزة بأحدث الأجهزة ،فقد تكلف 3 ملايين، غير بيت الغردقة وشقة سكرتيرته وسيارته المرسيدس، التي دفع فيها مليون جنيه بالتمام والكمال، وسيارات زوجته وابنه، وأشياء أخرى كثيرة لم يكن من الممكن أن يتنازل عنها ،وإلّا فما فائدة الملايين إذا عاش الإنسان وكأنه لا يملكها.

قد يبدو مبلغ 18 مليونًا كبيرًا في بداية المشوار، لأن تكوين هذا المبلغ ليس أمرًا هينًا، لكن حين يكون لديك 232 مليونًا فإن المال يأتي بالمال، فهذه الملايين التي تعب في الحصول عليها طوال 18 عامًا لها إيرادات، ومن الممكن خلال فترة وجيزة أن تأتي له بهذا المبلغ دون عناء شديد، كل ما كان يلزمه هو الوقت، لم يكن بحاجة إلى إعمال نفوذه ولا نفوذ أحد من زملائه المسئولين الآخرين ،كما كان يفعل طوال السنوات الماضية، كل ما كان يلزمه الآن هو بعض الوقت، لولا تلك التطورات الأخيرة التي أودت

براحة باله، وليس من المستبعد أن تكون السبب وراء إصابته بتلك الحساسية والالتهاب اللعين في شعبه الهوائية.

قرر ألَّا يفكر في هذا الموضوع حتى لا يزيد من همه، ومن ذلك القلق الذي أصبح يسيطر عليه ويجعله لا ينام الليل، لقد تناول من المنومات خلال الأسبوع الأخير وحده ما لم يتناوله طوال حياته، ولولا ذلك لكان قد جُن من عدم النوم، ومن كثرة التفكير.

لم يكن قد تعلم السباحة، لكنه كان يعرف كيف يظل طافيًا على السطح، ظل (يبلبط) في الماء جيئة وذهابًا حتى يصرف عن ذهنه تلك الأفكار السوداء التي كانت تسيطر عليه.

إن البلاد بها من المسئولين الكبار ما يزيد على الهم على القلب، فلماذا هو بالذات؟ لماذا ظلت الصحف تتناقل أخباره؟ وصارت الآن المظاهرات تردد اسمه حتي أصبح رمزًا للفساد، إن ما حققه كان بجهوده الذاتية، وعرق جبينه، صحيح أنه كان له نفوذ وأن ذلك خدمه في مواقف كثيرة ، لكنه لم يكن وحده في ذلك ، هناك آخرون، فلماذا تختصه الرقابة الإدارية من بين كل المسئولين بهذا التقرير الظالم؟ هل كان مطلوبًا البحث عن كبش فداء؟ هل لأنه كان أقل من كون لنفسه ثروة من بين المسئولين لذا كان من السهل التضحية به؟

لقد كان الأسبوع الأخير أسوأ فترة مرت عليه في حياته، فمنذ بدأت الرقابة الإدارية تهتم بأمره، عرف أن النهاية لن تكون سعيدة، فما هي إلَّا أيام قليلة بعد ذيوع خبر تقرير الرقابة الإدارية حول أعماله، حتى أعلن عن تحقيق سيجرى معه، فانقلبت حياته رأسًا على عقب، أصبح اسمه الآن في عناوين جميع الصحف وليس الصحف المستقلة أو المعارضة وحدها، وسكرتيرته أقرت

بكل شيء عند استدعائها للتحقيق، ولم تكن تلك الشقة التي اشتراها لها أو المجوهرات التي أهداها إليها ستمنعها من الشهادة ضده حتى تنجو بنفسها، ولتذهب الشقة من حيث أتت، فمازالت لديها هدايا يبلغ ثمنها مئات الآلاف من الجنيهات، تلك الخسيسة الوضيعة.

أما زوجته فما إن سقط وافتضح أمر علاقته بالسكرتيرة حتى طلبت الطلاق وطالبته بنفقة تتناسب مع الملايين التي ثبت من تحقيقات الرقابة الإدارية أنه يمتلكها.

لقد تطورت القضية بسرعة مخيفة، وسرعان ما عرف أنه سيصدر أمر بالقبض عليه إلى حين محاكمته، وقد نصحه محاميه بالهروب بأسرع وقت ممكن إلى خارج البلاد ،على أن يقوم المحامي في غيابه بالتفاوض لرد بعض الأموال التي يثبت عدم شرعيتها وجدولة بعض مديونياته للبنوك.

تم ترتيب كل شيء، لن يشتري تذكرة طائرة من مصر ولن يظهر جواز سفره للسلطات في المطار، سيسافر برّا إلى ليبيا ومن هناك سيأخذ الطائرة إلي بر الأمان في أوروبا، مثله مثل الكثيرين، الذين يعيشون الآن مليونيرات في باريس أو لندن أو غيرهما، وعندئذ سيقوم محاميه بعمل الترتيبات الخاصة بتحويل أمواله إلى هناك حتى يتم التوصل إلى اتفاق.

لكن الطامة الكبرى كانت حين حضرت إلى قصره بمصر الجديدة، وعلى غير موعد قوة من الأمن حاصرت القصر وأخبرته أنه غير مسموح له بالخروج إلّا للذهاب إلى التحقيق؛ أي أنه سيظل محدد الإقامة حتى يصدر قرار باعتقاله كما أخبره المحامي، وأنه سيحال بعد ذلك إلى المحاكمة محبوسًا، وقال له المحامي إن ذلك له مغزاه وتأثيره على مجريات القضية.

أخذ نفسًا عميقًا وغاص في حمام السباحة ، ثم خرج ثانية وهو لا يكاد يصدق أن كل ذلك قد حدث خلال أسبوع واحد، كان قبل ذلك هو الآمر الناهي، صاحب النفوذ والصولجان، وهاهو الآن سجين هذا القصر الفاخر حتى لو كانت زوجة السفير لا تعرف له طرازًا، والذي لا يستطيع أن يبرحه إلاَّ للذهاب إلى التحقيق، ثم بعد ذلك سيصبح هذا القصر الفاخر أيضًا من أحداث الماضي تمامًا مثل الجاه والسلطان اللذين تركهما وراءه.

لسعته الشمس فأخذ نفسًا آخر وغاص مرة ثانية وهو يتساءل: ماذا بقي لي في الدنيا غير المعاناة التي تنتظرني في السنوات المقبلة، والتي لم يكن يعرف مداها إلَّا الله؟ فكر كيف خدم البلد 18 عامًا متصلة، ثم هاهو الآن يعامل كالمجرمين! يساق إلى التحقيق، ثم إلى السجن، وهو الذي كان يستطيع قبل أسابيع قليلة أن يرسل من يريد إلى ماهو أسوأ من هذا المصير دون أن يسأله أحد عما يفعل.

خرج من حمام السباحة وتمدد على الأريكة الوثيرة ، التي كثيرًا ما كان يستلقي عليها في الشمس في الأيام الخوالي، لكن شمس اليوم كانت كنار جهنم الحارقة، ولم تكن حانية كما كانت في الماضي، والجو كان خانقًا شعر بأن جسمه يكاد يحترق من حرارة الشمس، وكادت الرطوبة التي في الجو تخنقه ماذا لو اختنق بالفعل وانتهت حياته عند هذا الحد؟ لو حدث ذلك فسيجنب نفسه الهوان الذي كان ينتظره في الفترة المقبلة، لكن أهم ما في الموضوع أن نهاية حياته كانت ستنتهي بدورها تلك الموضوعات الصحفية التي ظلت تلاحقه طوال السنوات الماضية، ستنتهي عندئذ القصة وللمرة الأولى ستظهر كلمة «النهاية» مكان عبارة «البقية في الأسبوع المقبل».

ظل هذا الخاطر يلح عليه وهو ممدد على الأريكة الوثيرة والشمس تحرق جسده والرطوبة تخنق أنفاسه.

نهض فجأة من مرقده وهرع إلى حافة حمام السباحة، قفز إلى الماء البارد فشعر على الفور براحة لم يشعر بها من قبل، ظل يغوص في المسبح، وقد زال عنه الشعور بالحرارة والاختناق وحل مكانهما شعور غريب بالراحة، لم يبذل أية محاولة (للبلبطة) كي يطفو على السطح، ظل يغوص لكنه ما إن استقر في قاع المسبح حتى ورد على ذهنه هاجس خبيث يقول: لا تظن أن تلك الراحة ستكون أبدية!

في اليوم التالي كانت عناوين الصحف تواصل اهتمامها بقضيته بعد هذا التطور المفاجئ الذي أعطاها مادة جديدة لم تكن تحلم بها، فبدأت في الأسبوع الأول بعناوين تتحدث عن وفاته في حمام السباحة بقصره الكبير، وفي الأسبوع الثاني بطرح التساؤلات عن ظروف وفاته التي جاءت قبل بداية التحقيق ببضعة أيام، وما إذا كان قد انتحر، وفي الأسبوع الثالث حول حجم الثروة التي تركها وراءه، ولأن الرجال المهمين تبقى سيرتهم بعد رحيلهم فقد كانت هناك دائمًا بقية في الأسبوع المقبل.



كونشرتو الناي

تفتح على الحياة فوجد نفسه مغروسًا في طين مصر الأسود، على ضفاف النيل بأعالي الصعيد، فقد كان أحد أعواد الغاب الذي يكثر نموه في تجمعات كثيفة على ضفتي النهر. . لكنه كان أجمل من بقية أعواد الغاب المحيطة به. . كان عوده طويلًا مفتولًا وعقلاته رشيقة متناسقة.

ولقد أمضى في البداية حوالي ثلاثة أشهر لينًا أخضر اللون، ثم سرعان ما لفحته شمس صعيد مصر الحارقة، فبدأ يقوى عوده ويصفر لونه فازداد جمالاً بعد أن استبدل ليونته الخضراء بتلك الصلابة الصفراء ذات اللمعة الملساء.

كان موضع فخر وإعجاب الجميع. . كانت الطيور البرية تعود أدراجها لتلقي نظرة ثانية على عوده الأملس اللامع، قبل أن تستأنف رحلتها الطويلة في موسم الهجرة للشمال. . وكانت الحيوانات المائية والأسماك تسبح بالقرب منه، أو تقذف بنفسها خارج الماء لتستقر عند قدميه حتى تتمكن من النظر مليًا إلى عوده الفارع قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

لكنه لم يكن يعير ذلك اهتمامًا، فقد كان يداخله يقين قوي بأنه خلق لحياة أخرى غير تلك الحياة الريفية المتخلفة التي وجد نفسه فيها.

كان يتطلع للذهاب إلى القاهرة مثل أقاربه الميسورى الحال الذين يطلق عليهم اسم الغاب الفارسي، والذين يتم تربيتهم في مزارع خاصة، وبعناية فائقة ليرسلوا بعد ذلك إلى المدينة، حيث تصنع منهم أدوات صيد الأسماك. أو مثل أقاربه الآخرين ذوي الأعواد السميكة الذين يطلق عليهم اسم «البامبو» والذين تصنع منهم أثاثات المنازل وأدوات الديكور.

غير أن طموحاته هو كانت تفوق كل ذلك.. فهو لم يكن ليقبل أن يتحول إلى عود للصيد يتدلى منه خيط من النايلون في الماء، وأن يظل يتقوس عوده ما بين جذب إحدى الأسماك البكماء وقبضتي رجل عجوز يرتدي قبعة بيضاء، ويجلس على شاطئ بالإسكندرية.

ولم يكن ليقبل أن يتم طيه وليه ليتحول إلى كرسي يريح عليه أحد الآدميين الجهلاء مؤخرته. كان يرفض هذا وذاك بمثل ما كان يرفض وقفته الحالية في شمس الصيف الحارقة ،وفي أمطار ورياح الشتاء العاتية.. لا ليس هذا ما خلق له هذا العود الجميل من الغاب.

كان يعلم في قرارة نفسه أن أحد أمهر صانعي الآلات الموسيقية في القاهرة سيتولاه في يوم قريب برعايته، ليصنع منه نايًا متفردًا وسط بقية نايات البلاد، تفرده هو وسط بقية أعواد الغاب المحيطة به، نايًا لم ير أحد له مثيلًا، نايًا يملأ الأفق بألحان شجية سيسمعها الناس لأول مرة، نايًا يستلقي داخل علبة سوداء مستطيلة كعلب الآلات الموسيقية المكسوة من الداخل بالقطيفة الحمراء أو بالجوخ الأخضر، حيث يتم ادخاره لمناسبة عظيمة.

فهذا الناي هو الذي سيتم اختياره من بين آلاف النايات الأخرى لكي يعزف عليه أول كونشرتو، يتم تأليفه للناي الشرقي الذي لم يدخل الأوركسترا السيمفوني بعد، وسيقدم هذا الكونشرتو لأول مرة في حفل كبير في دار الأوبرا ، يحضره جميع عظماء البلاد من رجال المال والسياسة والثقافة ونجوم المجتمع.

في هذا الحفل ستتركز أنظار الحاضرين جميعًا ليس على الأوركسترا السيمفوني ،وليس على عصا المايسترو الأجنبي الذي سيحضر من أوروبا خصيصًا لكي يقود الأوركسترا في هذا العمل الفني الكبير، والأول من نوعه في تاريخ التأليف السيمفوني، وإنما على ذلك الناي الفريد الذي لم يسمع أحد أنغامه من قبل، وسيكتشف خبراء الموسيقى السيمفونية أنه لا يختلف في شيء عن بقية آلات النفخ الخشبية الغربية كالفلوت والكلارينت والأوبوا والباسون.

لذلك فقد كان كلما نظر إلى البيئة الريفية المحيطة به ،ووجد الطمي الأسود أسفل قدميه والحيوانات المائية الصغيرة اللزجة والقواقع النيلية القبيحة تحوم حوله أصابه الغثيان.

لقد سمع من أحد العلماء الذين جاءوا تلك المنطقة ليأخذوا منها بعض عينات من الطمي، أن هناك أكثر من 30 مليون نوع مختلف من الكائنات العضوية الدقيقة كالبكتريا والفطريات في كل جرام واحد من التربة الزراعية، فكيف يمكنه هو الذي سيصبح نايًا فريدًا عما قريب أن يعيش وسط تلك البيئة الموبوءة.

لم يكن يحادث أحدًا ولم يكن يستمع لأحد، فقد كانت الأصوات التي

تجيئه في هذه المنطقة كلها نشازًا ، ولا تحتمل، سواء أكانت أصوات أعواد الغاب المحيطة به والناتجة عن تخبطها في بعضها البعض، أم أصوات الضفادع وصراصير الحقل في المساء ، والتي كانت كثيرًا ما تحول دون أن يغمض له جَفْنٌ .

لم يكن يستمع إلَّا لتلك الأصوات التي بداخله والتي لم تكن ألحانًا شعبية بلهاء كتلك التي يرددها أهل المنطقة، ولكنها كانت ألحان كونشرتو عظيم كتب للناي والأوركسترا .

لم يكن مؤلف الكونشرتو قد كتبه بعد، لكنه هو كان يحفظه عن ظهر قلب. . كان يعلم أنه سيبدأ بمقدمة طويلة للأوركسترا تكفي للإعداد لدخوله. . فالناي الذي طال انتظار مشاركته في الأوركسترا السيمفوني، لا يمكن أن يدخل بعد ثوان قليلة من بداية الكونشرتو كما يحدث للكمان المسكين في كونشرتو سيبليوس الشهير أو كونشرتو مندلسون .

وسيكون دخوله مفاجأة غير متوقعة، حيث سينتظر البعض أن يعزف ألحانًا شرقية كتلك التي تعود الناس سماعها من الناي، لكن ألحانه ستجيء غربية خالصة وسينسى الجمهور بعد قليل أنه يستمع إلى كونشرتو مصري لآلة من آلات التخت الشرقي، سيتصور الجميع أنهم يستمعون إلى كونشرتو «الإمبراطور» لبتهوفن؛ لأن عزفه سيكون بهذه العظمة أو إلى أحد كونشرتوات «براندنبرج» لباخ لأن أنغامه ستكون بهذه العذوبة .

وكونشرتو الناي الذي كانت حركاته الثلاثة مكتملة في مخيلته لم يكن كونشرتو مائعًا مثل تلك الكونشرتوات التي ألفها شوبان للبيانو، والتي تتداخل فيها ألحان البيانو مع ألحان الأوركسترا حتى يكاد يذوب

الواحد في الآخر.

فتلك الألحان كانت تذكره بأصوات الناي البلدي، التي كثيرًا ما كان يسمعها من بعض العازفين الريفيين من أهالي المنطقة الذين كانوا يمرون عليه في قواربهم الصغيرة في النيل وهي ألحان كانت دائما تصيبه بالسأم.

الكونشرتو الذي سيعزفه سيختلف عن أي كونشرتو آخر، فهو لن يردد أيًا من أنغام الأوركسترا، بل إن الأوركسترا هو الذي سيردد الأنغام وراءه.. سيكون هو في المقدمة دائمًا وسيتبعه الأوركسترا.

لم يكن يتصور الكونشرتو عملاً جماعيًا يعتمد على التناسق والتناغم ما بين الآلة المنفردة والأوركسترا، بل كان يتصوره مبارزة لحنية تصل إلى حد التصارع ما بين أنغامه المنطلقة بلا حدود والمحاولات اليائسة للأوركسترا للحاق به.

لم يكن الكونشرتو في الحقيقة إلَّا فرصة لإثبات تلك القدرات الخارقة التي كان يتصورها كامنة في داخله، والتي كان ينتظر بفارغ الصبر أن يستطيع استعراضها أمام الجماهير.

ثم جاء أخيرًا اليوم المنتظر، حيث هجم على أعواد الغاب مجموعة من الفلاحين الحفاة وأخذوا يقتلعونها من الأرض ويزيلون ما يحيط به من أعشاب يابسة، فيما يعرف بعملية «الفسخ» التي عادة ما تتم في بداية الربيع من كل عام وقبل هبوب رياح الخماسين.

كانت عملية همجية مؤلمة لكنه تحملها، وعيناه على المستقبل الذي كان ينتظره عندما يصل إلى القاهرة.... كان يسمع صرخات الألم الصادرة من بقية أعواد الغاب من حوله، وهي تُقْتَلَعُ من جذورها الضاربة في الأرض،

لكن صرخته هو كانت أشبه بالشهيق العميق الذي يأخذه المولود الجديد عند خروجه إلى الدنيا ،والذي يسبق بكاءه وإن كان شهيقه هو لن يعقبه بكاء . . وإنما سيعقبه لحن قوي متواصل لن يكف الناس عن ترديده بعد أن يعزفه لأول مرة في ذلك الحفل العظيم الذي كان ينتظره الجميع بالقاهرة .

وسافر إلى القاهرة في سيارة نقل كبيرة ، لابد أنها أرسلت خصيصًا من أجله ، رغم أنها كانت تقل مئات الأشياء الأخرى التي لا يعرف ما هي ، فهو لم ينظر إليها طوال الرحلة الطويلة التي قطعتها السيارة من الصعيد إلى القاهرة .

وقد حاول جاهدًا أن يتحمل مشقة الرحلة ، لكنه لم يستطع ، كان الزحام في سيارة النقل خانقًا ، لم يكن هناك هواء مثل الهواء الذي كان يعرفه على ضفاف النيل ، ولم يكن هناك ماء كما هي الحال في موطنه الأول ، وبدأ يزداد شعوره بالجفاف والحرارة والاختناق ، ثم أغشي عليه .

وفي القاهرة أفاق ليجد نفسه مغروسًا في حوض كبير لنباتات الزينة بأحد منازل القاهرة ، وقد استند إليه عود عملاق من نبات «الفيكس ديكورا» كان قد بدأ يميل فتم غرسه خلفه حتى يبقيه منتصبًا .

لم يعرف كيف انتهى به المطاف في هذا المكان . . لابد أنه حدث خطأ . . أين صانع الناي الذي كان ينتظره؟ أين الكونشرتو وأين الحفل؟ ظل يصرخ ، لكن أحدًا لم يكن يجيبه فلم يكن هناك أحد من حوله سوى ذلك النبات الأصم الذي يستند إليه .

كان كل ما يحيط به صناعيًا ، فالهواء بارد برودة جافة تختلف عن البرودة التي كان يعرفها على ضفاف النيل ، وهو ينبعث من جهاز كهربائي

مثبت بالحائط المجاور له، والطمي الذي غرس فيه طمي صناعي عرف فيما بعد أنه موضة الآن في القاهرة ، فمعظم البيوت الأنيقة لم تعد تستخدم الطمي الطبيعي، وإنما هذا الطمي الصناعي المستورد والذي هو في الحقيقة يتكون من قمامة الحدائق من الأوراق اليابسة والأغصان المتساقطة والمواد العضوية الأخرى، التي يضاف إليها بعض الكيماويات، ثم تترك لتتعفن فيما يعرف باسم «المكمور» ،وتتميز بأنها تحتفظ بالماء أكثر من الطمي الطبيعي ومن ثم فهي لا تتحجر مثله كما أنها خالية تمامًا من الحشرات والديدان وسائر الكائنات العضوية الأخرى.

أما الموسيقي التي كان يسمعها في بعض الأحيان عندما يكون هناك حفل عشاء بالمنزل، فكانت موسيقى غريبة عليه تمامًا تعزفها آلات إلكترونية لم يسمع بها من قبل ،وتصدر عن جهاز يدور بداخله شريط كاسيت تقوم صاحبة البيت باستبداله كلما وصل لنهايته.

وقرر أن يتذرع بالصبر قليلًا فربما كانت تلك مرحلة سينتقل بعدها إلى يدي صانع الآلات الموسيقية الماهر الذي تعرّف عليه في أحلامه. . لكن الأيام مرت. . اليوم تلو الآخر. . إلى أن تحولت إلى شهور. . ثم سنين. . وهو مغروس في هذا الطمي الصناعي بحوض الزرع في ذلك المنزل الأنيق بالقاهرة دون أن يلتفت إليه أحد.

وبدأ يقلق. . ثم تحول قلقه إلى خوف حقيقي، بعد أن أدرك أن حلمه لن يتحقق، ثم بدأ يشعر بأن نهايته تقترب حين وجد العفن قد بدأ يدب في عقلاته السفلى المغروسة في ذلك الطين الصناعي الرطب الخالي من الحياة.

وبدأ لأول مرة يشعر بالحنين إلى حياته السابقة على ضفاف النيل في أعالي صعيد مصر، حيث الشمس والهواء الطلق بتقلباته الموسمية من الخريف إلى الشتاء ومن الربيع إلى الصيف. . حيث صحبة رفاقه من الغاب البلدي، وحيث الطيور والأسماك والقواقع النيلية التي كانت تحيطه بدفئها وحنانها.

وبدأ يشعر بالحنين لصوت الناي الحزين الذي كان يأتيه من القوارب المارة في النيل. . ولأصوات الضفادع التي كانت تشكل الخلفية الإيقاعية لذلك اللحن العذب الأصيل.

لكن حنينه الأكبر كان لذلك الطمي النيلي الأسود وتراب صعيد مصر الذي هو نتاج آلاف السنين من أجساد الأجداد من الآدميين والحيوانات والنباتات ، التي عاشت في هذه البقعة من العالم فأثرتها حتى أصبحت من أخصب الأراضي في العالم.

وأدرك لماذا كانت تصرخ أعواد الغاب حين كان يجري اقتلاعها من تلك الأرض التي لن يعود إليها ثانية. . لأنه حين يترك مكانه في ذلك المنزل الأنيق بالقاهرة لن يكون للعودة إلى موطنه السابق، وإنما ليلقي به في القمامة!

رسائل العودة ....

عودي إليَّ

عودي إليّ، شعرك مازال على وسادتي . . ورائحة عطرك تملأ غرفتي . . ورابطة العنق التي أهديتها لاتزال حول رقبتي . .

جئت كالطيف الأثيري فدخلت حياتي دون أن تقرعي بابًا، ومكثت معي شهرًا قمريًا واحدًا فقط . . أربعة أسابيع . . ثمانية وعشرين يومًا . . ثم ذاب الطيف في زوبعة ريح مفاجئة وكأنه لم يأت قَطُّ .

كيف حدث ذلك؟ كيف تركتني هكذا ومضيت؟ قولي لي كيف؟ ألا أستحق منك تفسيرًا . . ألا أستحق اعتذارًا ؟ !

يقولون إن من قواعد الأدب أن يطرق المرء الباب قبل أن يفتحه . . أن يستأذن قبل الدخول . . لكن ذلك ليس صحيحًا، فالأدب كل الأدب أن يستأذن المرء قبل أن ينصرف . . وها أنت قد انصرفت بلا استئذان ولا حتى وداع .

أكاد أجن . . لا أستطيع النوم . . لا أستطيع (الصحيان) . . كيف

أنام وأنا لا أكف عن طرح السؤال : لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ وكيف أصحو وأنا مابرحت كالمسطول الذي لم يفق بعد من الصدمة؟

كيف وصلنا إلى حيث نحن الآن؟ بل إلى حيث أنا الآن؟ فأنت لم يعد لك مكان . . لست أعرف إلى أين مضيت ولا في أي أرض أو سماء حللت . .

كيف انتهى الحلم؟ لا أعرف . . أعرف فقط كيف بدأ . .

بعد ظهر ذلك اليوم الشتوي ذي الشمس الهادئة دخلت أحد المحلات . . لم أكن أعرف ماذا ينتظرني بالداخل . . ولا ما الذي ساق قدميك إلى ذلك المحل الذي لا يبيع إلَّا ملابس الرجال؟ لماذا لم أسألك بعد ذلك هذا السؤال، وأسئلة أخرى كثيرة تتدافع الآن إلى رأسي كالموج الذي يصفع الشاطئ بلا انقطاع؟

لم يكن هناك وقت . . لو أنه كان مقدرًا لنا أكثر من مجرد شهر واحد . . أكثر من أربعة أسابيع . . أكثر من ثمانية وعشرين يومًا بالتحديد، لربما وجدنا الوقت ليسأل كل منا الآخر أسئلة كثيرة . . لكنه ذلك السيف الذي لم نلحظه والذي قطع فجأة كل ما كان بيننا . . لو كان لدينا مزيد من الوقت لسألنا أنفسنا الكثير من الأسئلة التي ستظل الآن بلا أجوبة .

لم أشتر شيئًا من ذلك المحل، لست أذكر الآن لماذا؟ هل قال لي البائع إنه ليس لديهم ما طلبته؟ أم أنه لم يعر طلبي اهتمامًا؟ أم أنه أجابني لكني لم أَعِ رده؟ لست أعرف . . كل ما أعرفه هو أنني خرجت من المحل بك أنت، خرجنا معًا ليدخل كل منا حياة الآخر، وكأن هذا هو الشيء الطبيعي الذي كان يجب أن يحدث بعد ظهر ذلك اليوم الشتوي ذي الشمس الهادئة .

طوال شهر قمري كامل لم يفارق أحد منا الآخر . . أما زال في الدنيا

ذلك الحب الذي يحدث من أول نظرة؟ لقد عدت يومها إلى منزلي وأنا أعرف أنني وقعت في حبك في نفس اللحظة التي رأيتك فيها .
نعم وقعت، ووقعنا، ووقعت بنا الأرض، ووقع العالم كله من حولنا . . هكذا بلا مقدمات . . العقل ضاع والتفكير توقف ولم نسمع قلبينا يدقان بقوة معًا كأنهما قد أصبحا قلبًا واحدًا ، خشينا أن يسمع دقاته المارة في الطريق .
أذكر ذلك القول الذي قلته لي ذات مرة . . أهو لكاتب فرنسي :
«تنهيدة الحب الأولى هي تنهيدة العقل الأخيرة» . . لقد وجدت لك مقولة أخرى من تلك المقولات التي كنت تحبين جمعها وهي لكاتب إنجليزي هذه المرة تقول : كم هم حكماء هؤلاء الذين هم حمقى في الحب ! كنا حكماء إذن ولم نكن حمقى . . كنا حكماء لأننا كنا حمقى .

إني لم أكن أسعى لهذا الحب ولا لأية علاقة خاصة مع فتاة صغيرة مثلك . . فأنا أقترب بخطى ثابتة من سن الستين وأنت لم تصلي بعد إلى الثلاثين . . قلت إنك لا تحبين الشباب الصغار . . لاتنجذبين إلاً للشعر الفضي . . وأنا شعري قد شاب في سن الأربعين .
ثلاثون سنة كانت فارق السن بيننا . . قلت لي : ليحرق كل منا شهادة ميلاده ولنستخرج شهادة جديدة لنا معًا ، فحياتنا بدأت يوم التقينا . . ومزقت شهادتي البالية . . ومحوت تاريخي السابق . . وأعلنت ميلادي الجديد .
من أين جئنا بكل هذا الحب؟ هل الحب هذا مثل بعض الأمراض التي إن أصابت الإنسان في الصغر فلا خوف ، أما إذا جاءته في الكبر فيا ويله منها؟ هل الحب مثل الحصبة والجدري والجديري واحتقان اللوزتين؟ لابد أنه

كذلك فأنا الآن مريض أشد ما يكون المرض .

أمضي يومي الآن أحصي الساعات التي قضيناها معًا ، كمن في تعبده يعد حبات المسبحة . . مسبحتي التي لا يراها أحد والتي بها 672 حبة هي عدد ساعات الثمانية والعشرين يومًا التي قضيناها معًا . . أمضي يومي أحصي القبلات التي كانت بيننا والتي لا تكفيها حبات المسبحة فقد كانت كالنجوم بلا عدد .

وكلبك الأبيض . . كوكي هذا الذي ابتليتني به ورحلت . . سأقتله . . سأقذف به من النافذة ، فلم أعد أطيق نظرة عينيه الحائرتين اللتين لا تكفان عن سؤالي عنك . . لقد أصبح مثلي كالحيوان المحبوس في قفص حديدي يمضي نهاره يمشي من الباب إلى الفراش ومن الفراش إلى الباب يبحث عنك . . يذكرني بما لم أنسه . . بما أحاول أن أسترجعه بكل أحداثه كالذي أفاق لتوه من حلم جميل، ويحاول استرجاعه بسرعة حتى لا تضيع منه التفاصيل .

عودي إليّ . . لم أعد أستطيع . . سأصرخ باسمك في الطرقات علك تسمعينني . . سأنشر إعلانا في أكبر الصحف أقول لك فيه على صفحة كاملة : عودي إليّ ! عسى أن تكون لهاتين الكلمتين قوة الأمر العسكري الذي لا تملكين إزاءه عصيانًا .

عودي إليّ . . فأنا أشعر باليتم . . حين توفى أبواي حزنت عليهما حزنًا كبيرًا لكني لم أشعر باليتم الذي أشعر به الآن .

تتذكرين يوم زرنا أهرامات سقارة في بداية عهدنا؟ مشينا ساعات في الصحراء أنا وأنت وتحت أقدامنا الرمال كالوسادة الناعمة، وفوقنا زرقة

السماء الحانية؟ يومها اقتربت يدانا وتلامسنا لأول مرة . . ثم تشابكتا رغمًا عنا بينما أخذت أعيننا تتلفت حولنا خشية أن يرانا أحد .

قلت لي : نسافر خارج البلاد حتى أستطيع أن أمشي في الشارع ويدي في يدك دون أن نخشى أحدًا .

هل تذكرين حين عدنا بعد أيام إلى نفس المكان؟ هل تذكرين كيف وجدنا العشب الأخضر قد نبت تحت تلك النخلة الوحيدة التي جلسنا في ظلها؟ نبت في كل موقع وطأته قدماك في الصحراء كما نبت في صحراء حياتي ونبتت كذلك الأزهار والرياحين . ثم فجأة طلع علينا ذلك الشاب الدمث ابن المنطقة، الذي أعطانا ماكتبه من أشعار . ليتنا استمعنا إليه حينذاك . . فحين عدت بعد ذلك إلى أبياته البسيطة الصادقة وأنا أنقب في وحشتي عن كل ما يتعلق بك، وجدت في تلك الوريقات التي أعطاها لنا قصة ذلك الحب الذي هب كالإعصار بين فتى وفتاة ولم يهدأ إلى أن رحلت الفتاة . . اختطفها الزمن .

ألم أقل لك إنني أخشى أن ينتهي حبنا؟ قلت لي : لن ينتهي، فإن الحب حين يكتمل لا يمكن أن ينتهي . . لا يمكن أن يموت . .

قلت لك : قد يصيبنا السأم . . قلت لي : إنك لا تعرفني إذن! قلت : بل أعرفك . . لكني أعرف أيضًا الزمن .

واليوم ها قد فعل الزمن فعلته وأخذك مني السأم . . والسأم حين بحثت عنه في المعاجم وجدت أنه الموت، لقد اجتزت يا فتاتي شاطئ الحياة إلى البر الآخر . لكن يجب أن تعودي . . إذا عدت ستعود تشرق شمس الأندلس . . ستعود الجولان . . ستتحرر فلسطين وتحطم القدس قيودها . . عودي إليّ

. . وإلّا فسأترك هذه الدنيا وآتي إليك حيث أنت !

العَوْدُ أحمدُ

صديقي العزيز، بل أخي ورفيق طريقي أحمد . .

أكتب إليك هذا الخطاب عسى أن يصلك في خلوتك فيعيدك إلينا مرة أخري . .

كيف حدث ما حدث فجأة هكذا؟ أين عرفت هذه الجماعة التي قلبت حياتك رأساً على عقب؟ أريد إجابة عن هذا السؤال فإن لي عندك حقًا . . حق الصداقة التي كانت بيننا منذ كنا طفلين بالمدرسة، وحتى سنوات دراستنا الحالية بالجامعة، ألم نكن الصديقين اللذين لا يفترقان أبدًا؟ ماهي تلك الجماعة الغاشمة التي فرقتنا؟ إنني أذهب كل يوم إلى الجامعة وأجلس في المدرج وأحس بأن الجميع يتهامسون من حولي . .

هل تذكر مدحت؟ ذلك الرزيل الذي كان يعاكس صديقتك القديمة مرفت؟ لقد كدت أضربه أول أمس حين سمعته ينطق اسمك لمجموعة من الأرازل الذين يشبهونه فلم أطق ذلك . . تقدمت إليه أمام الجميع وقلت : ماذا تقول عن أحمد؟ قال : كنا نسأل عنه، لماذا لم يعد يحضر المحاضرات؟ . . قلت : مالك أنت إن حضر أو لم يحضر . قال : أليس من حقنا أن نسأل عن زميل؟ فقد يكون ألمّ به مكروه . .

قلت: لا، لم يلم به مكروه، إنه مريض . فضحك الكلب وضحك معه زملاؤه وهو يقول: نعم، هو فعلاً مريض، وقد سمعنا عن المرض الذي أصابه . سافل حقير ! يريد أن يتشفى ليس إلّا ! ويجرؤ أن يقول : أليس من حقنا أن نسأل عن زميل؟ أي حق هذا الذي يتحدث عنه؟ لا بالطبع، لا حق له،

لكني أنا لي هذا الحق . . فدعني أسألك يا أحمد : ماذا حدث؟ لقد كنت شابًا طبيعيًا مثلنا وكانت حياتنا طبيعية تمضي بلا مشاكل، طبعًا كل حياة بها مشاكل، لكنها المشاكل التي تواجه كل الشباب، ما أقصده هو أنك لم تواجه صدمات تدفعك في هذا الاتجاه الذي لا أريد أن أسميه لقد اختلفت أنت ومرڤت . . هذا صحيح، ولكن تلك لم تكن نهاية العالم فهناك فتيات أخريات في هذه الدنيا أليس كذلك؟

لا أريد أن أتخيل كيف تكون الآن . . يقولون إنك قد أطلقت لحيتك وأنك لا ترتدي إلّا ذلك الجلباب القصير القبيح الذي لايمت لملبسنا بصلة، لا لا أريد أن أصدق ولا أريد أن أتصور، وإذا تصورت أي شخص في هذه الصورة فلن أتصورك أنت . . أنت صديقي، بل أخي ورفيق طريقي الذي كان مليئًا بالحياة، مقبلاً عليها مثلنا جميعًا . . لم تكن لك حياة بدوني ولم تكن لي حياة بدونك . . كنا نذهب للمدرسة معًا . . ودخلنا نفس الكلية؛ لأننا حصلنا على نفس المجموع . . . . طبعًا، فقد كنا نذاكر معًا وما دخل رأسك من الدروس هو مادخل رأسي . . وكنا نمضي وقتنا مع نفس الأصدقاء بالنادي، ويوم الجمعة كنا نذهب للصلاة معًا . . حتى حين صادقنا فتاتين كانتا صديقتين حميمتين . . مرڤت وليلي . . فكيف وقع إذًا هذا الفراق وماذا حدث؟

لست أعرف هذه الجماعة ولا أعرف كيف قابلتهم ومتى؟ ثم ماهي هذه الجماعة، وما هي تعاليمها؟ هل تقتضي هذه التعاليم أن تترك بيتك وأهلك هكذا؟ والدك المريض ووالدتك التي صارت تحاصرها عيون الناس في كل مكان؟ هل تقتضي تعاليم هذه الجماعة أن تترك أصدقاءك؟ أن تعتزل الدنيا كلها؟

إني أكره هذه الجماعة السوداء، ولو أني قابلت أحدًا منهم لأطبقت بيدي على رقبته كما كنت سأفعل مع مدحت . . نعم سأطبق على رقبته وسأقتله إذا لم يخبرني ماذا فعلوا بك حتى تنساق وراءهم هكذا!
كنا قد تواعدنا على السفر مع بقية الأصدقاء إلى الإسماعيلية صباح يوم السبت، وذهبنا معًا يوم الجمعة لشراء الكاميرا حتى نلتقط صورًا للرحلة، قلت لك إن هذه الرحلة ستنسيك مرقث وتعود منها سليمًا معافى، وعاد كل منا إلي بيته على أن نلتقى صباح اليوم الثاني بمحطة الأوتوبيس الذي سينقلنا جميعًا إلى الإسماعيلية، وذهبت للمحطة مع الجميع لكنك لم تأت . . أردت التخلف للسؤال عنك، فقد أحسست أنك قد أصابك مكروه، لكن الأصدقاء استبقوني قائلين إنك ربما تأخرت في المواصلات، وإنك لابد ستلحق بنا فأنت تعرف أننا سنمضي يومنا بالنادي الإسماعيلي، وماهي إلَّا ساعة أو تكاد وتكون معنا هناك .

بهذا الأمل ركبت معهم الأوتوبيس . . ويعلم الله أنني لم أقم أصلاً بهذه الرحلة إلَّا من أجلك أنت . . لكنك لم تأت، وكانت رحلة كئيبة ظلت تتجاذبني خلالها الحَيْرةُ والشكوك : أين أنت وما عساه قد حدث لك؟ هل وقع لك حادث؟ هل حدث شيء لوالدك؟ هل مرضت أو أصابك مكروه؟ وكانت ظنوني . . واأسفاه . . كلها في محلها فقد وقع لك حادث ومرضت وأصابك مكروه . . إنه الحادث المباغت الذي لم يكن أحد يتوقعه وهو المرض الخبيث الذي لا يأتي إلَّا خلسة، وهو المكروه الأكبر الذي يستولي على كيان شاب في مقتبل العمر كان دائمًا مقبلاً على الحياة . . ومازلت أسمع رنين ضحكتك الصافية!

أخي ورفيق طريقي أحمد . . أرجو أن تكون تلك حالة عارضة وتعود مرة ثانية إلى كل من يحبونك . . الذين لم تعد حياتهم كما كانت حين كنت تملؤها بهجة وسرورًا.

أحمد بقوة كل ما بيننا من صداقة أقول لك صادقًا عد إلى صوابك . . عد يا أحمد فالعود أحمد .

عُدْ يا زمن !

ها أنا هنا أعرف أن حياتي صارت ورائي ولا أنتظر الكثير مما بقي لي منها، لكن بي فقط اشتياق إلى ولديّ شريف ومصطفى . أعرف أن لديهما مشاغل كثيرة، فالدنيا لم تعد كما كانت في الماضي، لقد كنا جميعًا نجد الوقت لنزور أمهاتنا، أما الآن فليس لدى ولديَّ الوقت لكي يزوراني إلَّا في الأعياد والمناسبات، فابني الأكبر شريف طبيب، والطبيب لا يكاد يراه من يعيش معه في بيت واحد، والثاني هو مصطفى الذي رحل . . ترك البلد كله وسافر . . من حقه بالطبع أن يبحث عن الرزق أينما كان، هذا حقه الذي لا ينازعه فيه أحد، ومع ذلك فقد وحشتني يا مصطفى . . آه! كم على قلب الأم أن يتحمل من الأبناء !

إنني في حقيقة الأمر مدينة لولديَّ بما أنا فيه الآن . . فلولا بيت المسنين هذا الذي وضعاني فيه لكنت وحيدة لا أحد من حولي يرعاني أو يقدم لي الدواء . . هنا الجميع مثلي لا أهل لهم . . بالطبع لهم أهل ولكن أهلهم ليس لديهم الوقت فهذه قد أصبحت سنة الحياة . . إن لي زميلة هنا لا تكف عن الشكوى . . تقول إن أحدًا لم يأت لزيارتها منذ ثلاث سنوات . . كم

أرثي لحالها . . وكم أشكر الله أنني رأيتك يا شريف منذ شهرين، وإن كنت لم أر مصطفى منذ ثلاث سنوات أنا الأخرى . . لكنه مسافر، فماذا يفعل المسكين؟

في بعض الأحيان أتذكر بيتنا القديم قبل أن يموت زوجي . . كم كانت الحياة جميلة . . كان شريف ومصطفى طفلين يمرحان . . كانت هناك أسرة بها أب وأم وأبناء، فماذا حدث؟ لماذا كان يجب أن تفكك الأسرة هكذا يا زمن؟ لماذا كان يجب أن يموت الأب، ولماذا كان يجب أن يرحل الأبناء؟ ولماذا كان يجب أن يغتصب مني بيتي وأطرد من بلادي .

إني لا أشكو ولا أتذمر، بل أحمد الله على كل شيء . . أحمد الله على أنني لم أكن في البيت حين جاءوا يأخذونه . . أحمد الله أنني لم يلق عليَّ القبض وأساق في الشوارع مثلما حدث مع أخريات .

لقد ماتت أول أمس زميلتي التي كانت ترقد في السرير الملاصق لسريري . . كانت إنسانة هادئة زميلتي هذه، ولم تكن تتكلم كثيرًا لكنها كانت تنتحب طوال الليل . . كانت تخشى أن تتألم في الموت . . لقد رأف الله بها وماتت في نومها . . صباح أمس حين جاءتها الممرضة لتعطيها الحقنة التي كانت تبدأ بها يومها وجدتها قد فارقت الحياة أثناء الليل .

أما أنا فلا أخشى الموت . . إنني أعرف أن ساعتي قد دنت فالطبيب أخبر ابني شريف في آخر زيارة له منذ شهرين أن أمامي ستة أشهر على الأكثر . . لقد عرفت كل ذلك، فهنا لا توجد أسرار . . لقد أخبرتني الممرضة بنفسها .

في البداية بكيت كما لم أبك من قبل . . لم يكن ذلك خوفًا من الموت

وإنما حزنًا على أني سأموت وحدي هنا بعيداً عن ولديّ بعيدًا عن بيتي . . لكن ماذا بمقدوري أن أفعل؟ لقد واسيت نفسي بأنني على الأقل في الموت سأرى زوجي الذي أمضيت معه أحلى سنوات حياتي . . لم تكن آنذاك بهذه القسوة يا زمن . . كنت حانيًا وكانت الحياة جميلة وكنت أعيش في سلام .

كم أتمنى أن تعود ثانية يا زمن . . ولو ليوم واحد فقط . . خذني ليوم واحد فقط إلى ذلك البيت القديم في يافا وليكن يوم العيد . . حين كان الولدان يطلبان العيدية من والدهما وكانا يضحكان كلما قلت لهما : هذه العيدية مني أنا أيضًا ، ثم كنا نأكل الكعك والغُريِّبة معًا . . ويأتي الأهل والأصدقاء لزيارتنا من القدس وحيفا ونابلس والخليل .

أعد إليّ ذلك الزمن . . أعد إليّ زوجي الذي اختطفته . . أعد إليّ ولديّ اللذين فرقتهما . . أعد إليّ بيتي القديم . . أعد إلي وطني . . أعد إليّ كل ما أخذته مني عُنْوةً ودون وجه حق . . أعده ولو لساعة واحدة قبل أن تأتي لتأخذ حياتي .

عُدْ إلى نفسك أولاً !

لا . ليس هذا هو أنت ! لم يكن أنت ذلك الذي عاد إليّ ! ليس هذا حبيبي ! أين أنت إذن؟ من جاءني في الموعد كان يشبهك ، بل كان صورة طبق الأصل منك ، نفس عينيك اللتين أمضيت ثلاث سنوات كاملة أنظر إليهما كلما التقينا ، ونفس أحضانك التي طالما اكتنفني دفؤها ، لكن شيئًا ما لم يعد كما كان ، لقد كنت كمن صوروه على هيئتك لكنه ليس أنت . .

الشكل والهيئة نعم ولكن الروح ليست روحك أنت .

إن ما أعطى لعينيك شكلهما هو روحك التي طالما نظرت إليّ من أعماقها السحيقة ، وما كان يشع من خلال دفء ذراعيك وصدرك العريض هو روحك أيضًا، فهل ذهبت عنك الروح؟ مستحيل ! لابد أن ذلك كان شخصًا آخر غيرك الذي جاءني .

ثلاث سنوات أمضيناها معًا كانت هي عمري كله، ثلاث سنوات حولتني من شخص إلى شخص آخر ، كنت فتاة بريئة ساذجة فصرت امرأة تدرك ما يعتمل في نفسها من مشاعر وأحاسيس ولا تهرب منها إذا هي لم تفهمها، ولا تكبتها إذا هي خجلت منها، إن سيمون دي بوفوار تلك الكاتبة الفرنسية التي لم يفهم أحد المرأة مثلها، قالت : «إن المرأة لا تولد امرأة وإنما هي تصبح امرأة» وهذا ما حدث لي معك، لم أكن امرأة، كنت طفلة ربما، كنت فتاة بلهاء ربما، فجعلت مني أنت امرأة بكل ما تعنيه تلك الكلمة من أحاسيس وخلجات ، وصرت بعد ذلك كلما شعرت بأنوثتي شعرت بك سواءأ كنت معي أم كنت وحدي، فأنت صاحب هذه الأنوثة لأنك أنت الذي صنعتها بيديك . . بشفتيك . . بذراعيك . . بأنفاسك . . بقبلاتك .

قلت لي إننا خُلِقْنا . أحدنا للآخر، وكنت أشعر بذلك فأنا وأنت مكملان لبعضنا البعض في طباعنا وأحاسيسنا، في أهوائنا وجنوننا، في قبلاتنا وأحضاننا، فما كنا نلتقي حتى يتكامل الكل ونصبح كيانًا واحدًا لا يمكن أن ينفصل أو ينشطر . ثم جاء ، ذلك اليوم الذي لا أعرف كيف جاء ولا من أين جاء ، لم يكن مثل بقية أيام الرب، كان يومًا من صنع إبليس لم يمسسه الرب برحمته. نعم، جاء اليوم البائس حين طردنا من

الجنة، حين انشطر الكل وانقسم نصفين، وتدحرج كل نصف منه بعيدًا عن الآخر، وكنت أنت الذي فعلت ذلك، أنت الذي قلت لي إنه لا حيلة لك وإنك لابد أن تتزوج ابنة شريك والدك في الشركة، قلت لي إنك رفضت وقاومت، فلم تكن تتصور أن يكون لك غيري، لكن الأمر وصل إلى حد التهديد بطردك من البيت وبحرمانك من الميراث و . . و . . أشياء أخرى كثيرة كانت نتيجتها في النهاية هي إخضاعك بالكامل .

إن الفجيعة التي رأيتها على وجهي في ذلك اليوم وفي كلماتي ومشاعري، وفي كياني كله كان الجزء الأكبر منها نابعًا من أنني فجعت فيك أنت وليس فيمن أخضعوك لإرادتهم، كيف قبلت هكذا ورضخت؟ كنت أتصور أنك سترفض . . وستترك البيت وستتنازل عن الميراث . . وسنقف أنا وأنت عرايا أمام العالم، نجاهر بحبنا ونقول للدنيا بأسرها : ليس لديكم جميعًا ما يمكن أن يفرقنا ، ثم ما لم أفهمه أن يفعل أب في ابنه مافعل أبوك بك باسم حبه لك وحرصه على مصلحتك، أي حب هذا الذي يحطم إنسانًا كي يخضعه لإرادته؟ أي حب هذا الذي يضع مشاعر إنسان تحت نعله ويدهسها حرصًا على مصلحته؟ ليس هذا حبًا وإنما هو الأنانية في أبشع صورها، وإن كان حبًا فهو حب المال الذي يريد والدك أن يضاعفه عن طريق تلك الزيجة .

لن أخوض فيما تعرضت له بعد ذلك وأنا في وحدتي بعيدة عنك، بعيدة عن نصفي الآخر الذي استؤصل من جسدي ومن روحي بسكين حاد، نصفي الآخر الذي كان هنا بين أحضاني، وفجأة لم يعد له وجود، كدت أصاب بانهيار عصبي وأخذتني أمي رغمًا عني إلى طبيب نفسي صديق

للعائلة، لكي أتخطى المأساة لكن كيف؟ فهناك من المآسي ما لا يمكن تخطيه كيف تتخطى البشرية مأساة خروج آدم من الجنة؟ كيف تتخطي خيانة صلب المسيح؟ كيف تتخطى عار مقتل الحسين؟ كيف تتخطى كارثة هيروشيما ونجازاكي وتكسير عظام أطفال الانتفاضة في فلسطين؟ لا . . إن ما فعله الطبيب هو أنه جعلني أتعايش مع المأساة فقط تمامًا كما تعلم الإنسان أن يتعايش مع كبريات مآسي التاريخ ، وأن يواصل حياته رغمًا عنها وكأن شيئًا لم يحدث أو كأن حسه قد تبلد .

ستة أشهر كاملة لم أسمع منك كلمة واحدة، ماذا كان يمكن أن تقول؟ لم يكن هناك كلام يقال، ستة أشهر لم أكن أسمع فيها إلَّا ما كان يجري من استعدادات للفرح الذي تسابقت الصحف بعد ذلك لنشر صوره حتى أطالعها في كل ما تتناوله يدي من جرائد ومجلات .

لكني أصارحك القول بأنه في أحلك لحظات الظلام الدامس التي مرت بي كان هناك دائمًا في داخلي شعور ما بأنك لابد عائد إليّ . . شعور وضَّاء كالنجم الثاقب الذي يبرق وسط الظلمات . . لا، لم يكن ذلك محاولة لطمأنة نفسي المكسورة أو لمواساة روحي المجروحة، وإنما كان إحساسًا دفينًا بما ينبغي أن يكون، كان يقينًا راسخًا بالحق الذي يجب في النهاية أن يسود حين يقهر النورُ الظلامَ، وترتفع راية الانتصار عالية خفاقة في عنان السماء . كنت أعرف أنك لن تجد عندها ما كان لنا في السابق، هي لم تكن نصفك الآخر الذي بدونه لا تصبح واحدًا صحيحاً، نصفك هو أنا ونصفي هو أنت، ولا أحد غيري أو غيرك يمكن أن يجعل ذلك الواحد صحيحًا .

وفي صباح مشرق من شهر مارس مع بداية الربيع عدت إليّ وتعانقت

روحانا من جديد، تداخل النصفان حتى صارا كلًا واحدًا، انتفضت الدنيا كلها من حولنا بالبرق والرعد تعلن على الملأ لحظة البعث المنتظرة .

وقبلنا أن نواصل حياتنا معًا من موقعنا الجديد، الذي وضعتنا أنت فيه، قبلنا أن نواصل علاقتنا في الخفاء، وراء الأبواب، تحت الأرض، كحركات المقاومة الوطنية التي تختفي تحت الأرض لفترة لكنها تعود لتنطلق بعد ذلك لتحرير الأوطان من الظلم والهوان.

وهكذا وجدت الحب الذي كان يسبح في بحار الدنيا كلها قد انحصر الآن في قمقم مغلق كالجن الملعون ، حتى لا يخرج إلى العلن، وجدت أن الحب الذي لم تكن الدنيا كلها تسعه قد دفن تحت الأرض حتى لا يكتشفه أحد .

لكن الأيام مضت بيننا وحركة المقاومة مازالت مخنوقة تحت الأرض، والأوطان لم تتحرر، ظلت الأرض محتلة، وظل المغتصب مغتصبًا، وظل المقهور مقهورًا .

لم يأت المخلص، وأما ذلك الذي عاد إليّ فقد كان المسيخ الدجال، فقد بدأت تتلفت حولك خشية أن يراك أحد، وبدأت تنظر إلى ساعتك حتى لا يلحظ أحد تأخرك، ويبدأ يتساءل القلق الذي في عينيك أثناء رحلتنا الخلوية : متى سنعود؟

لا ، ليس هذا أنت، ذلك الإنسان المهزوز المهزوم لا يمكن أن يكون أنت، ليس هذا هو الرجل الذي أحببت، لقد كان حبيبي جريئًا مقدامًا مقبلاً على الحياة، أما أنت فخائف متردد متراجع، إنك رَجُلها هي ولست رَجُلي !

كيف تصورت أنك يمكن أن تعود إليّ بهذا الشكل كالصورة المهزوزة،

التي ضاعت منها بؤرة التركيز بعد أن اهتزت الكاميرا في يد المصور الرعديد الجبان؟ كان يجب أن تعود إلى نفسك أولاً قبل أن تعود إليّ .

متى العودة يا وطن؟

أيها الوطن العربي المترامي الأطراف ، ماذا دهاك؟ كيف أصابك الترهل وزال عنك عنفوانك القديم؟

يا وطني قد تمزقت أوصالك وصار الأخ يقتل أخاه . . تفرقت الأمة وتجزأت فسهل إخضاعها واحتواؤها . . هانت الأمة حتى صارت تنقاد بالمغريات . . وتتوه في المغيبات . . وتنصاع للتهديدات .

مينا . . يا أول وَحْدَوِيٍّ في التاريخ ، إن من يدعون الإسلام صاروا يقتلون أشقاءهم في الجنوب ، والشمال كله غافل لا يبالي كأنك لم توحد الشمال والجنوب .

يا من حملتنا الوصية بأقباط مصر ، أين منا طلعتك الشريفة في هذا العصر؟

أحمس . . يا مخلص تراب الوطن من دنس القدم الأجنبية ، تعال فانظر ماذا تصنع ذات القدم بأشقائنا في فلسطين ! انظر قدم الصلف والعنجهية والهمجية تركل أشقاءنا ثلاث مرات في اليوم ، وتركل معهم كبرياءنا ولا أحد يتكلم . . وحين نتكلم ـ فليس هناك في المقدور غير الكلام ـ يصدر الفيتو فيبطل حتى الكلام !

أي صلاح الدين . . يا من وحدت جند العرب خلف قيادتك فطردت أكبر جيوش العالم وحررت بيت المقدس . . الوحش جاثم على صدر

الأمة العربية ينتهك قدس الأقداس في الصبح والمساء بوحشية، وقد أطبقت يده اليمنى على عنق بغداد واليسرى على عنق بني غازي والناس يتفرجون ولا يبالون !

يا عبدالناصر . . يا من حررت أبناء وطنك الأكبر وصحت بالعزة والكرامة، لقد عاد الأبناء إلى خنوعهم وصار التبلد هو عنوان الشعوب العربية !

آه يا وطني . . متى تعود حرّا كما كنت ؟ متى تعود؟ حتى تعود الحبيبة . . ويعود الأخ والصديق . . ويعود الحبيب . . ويعود الزمن . . وتعود كما كنت يا وطن !

الأوتوبيس

مات السائق وترك الأوتوبيس المكتظ بالركاب معلقًا على صخرة فوق جبل المقطم في جنح الليل. كانت العجلتان الخلفيتان للأوتوبيس ترتكزان على الطريق الضيق، بينما تتدلى إحدى عجلتيه الأماميتين في الفراغ وهي تدور في الهواء.

لم يصدق أحد من الركاب ما حدث، ففي لمح البصر كان الأوتوبيس قد انحرف عن طريقه وقذف بالسائق إلى الخارج، حيث سقط من فوق الجبل جثة غارقة في بحر من الدماء.

سقطت أيضًا سيدة مسنة كانت تجلس على السلم الأمامي تاركة وراءها قفتها الكبيرة، كما سقط عدد آخر من الركاب لا يذكر أحد من هم ولا أين كانوا يجلسون.

الجثة الوحيدة التي كانت ظاهرة أمام أعين الركاب هي جثة السائق، ومع ذلك فإن أحدًا لم يلق بالاً إليه أو إلى ما أصابه؛ فقد كانت المصيبة التي

تركها وراءه تفوق في هولها فجيعة الموت التي لحقت به.

ما العمل؟ وماذا باستطاعة أي من الركاب أن يفعل في مثل هذا الموقف الذي لا يحتمل أي خطأ؟ الظلام دامس، وأي حركة بسيطة من الركاب قد تتسبب في الإخلال بتوازن الأوتوبيس فينقلب إلى سفح الجبل وراء سائقه.

كان هذا ما أدركه الكمساري الشاب الذي صاح في الركاب من مؤخرة السيارة فور وقوع الحادث أن يلتزموا جميعًا مواقعهم دون حراك.

لم يدر أحد من الركاب من الذي يصيح وسط الظلام الحالك الذي عم السيارة، ولكن الكمساري أخرج من جيبه بطارية صغيرة أضاءها فبدد بعض الظلمات، حتى بدأ الركاب يتبينون معالم بعضهم البعض.. ثم أخرج من جيبه علبة ثقاب أضاء بها قلة شموع كتلك التي تستخدم في سبوع الأطفال.. كان ارتجاج السيارة قد قذف بها من قفة السيدة العجوز إلى منتصف الممشى الواقع بين مقاعد الركاب.

وسرعان ما أضيء المكان، وكأن الشموع ثريا كبيرة وسط السيارة فبدأ الركاب يهمون بالحركة، لكن الكمساري سارع برفع ذراعه وذلك تحسبًا لقوة الغريزة التلقائية التي كان يمكن أن تدفع بالركاب في مثل هذا الموقف إلى خارج الأوتوبيس في هرج ومرج.

ومع الضوء الذي أضاءه الكمساري، ومع محاولته التحكم في الموقف انقشع شعور الفزع الذي أصاب الركاب عند وقوع الحادث وحل محله شيء من الاطمئنان النسبي إلى أن هناك من يستطيع إدارة دفة الأمور بحكمة وتعقل بعد هذا الحادث، الذي كاد يودي بحياتهم جميعًا.

على أن أحدًا من الركاب لم يكن قد ألقى بالاً لهذا الكمساري قبل

ذلك، فقد كان جالسًا هناك في مؤخرة السيارة يقوم بعمله دون ضجة، بل - كما كان يبدو في ذلك الوقت - دون مقدرة فائقة أو لافتة للنظر.

ولكن أي مقدرة يمكن أن ينتظرها الإنسان في عمل كعمل الكمساري؟ الأمانة؟.. ربما.. الدقة؟ ربما.. وقد كان هذا الكمساري يتصف بالدقة والأمانة معًا، ولكن هل سيكون بإمكانه أن ينقذ الركاب من هذا الموقف بعد أن انحرف الأوتوبيس وكاد يسقط بهم من فوق الجبل؟

لقد عم الركاب جميعًا في تلك اللحظة شعور غامض بأنه ربما يكون القدر قد اختار هذا الكمساري بالذات لإنقاذ الموقف الذي وجدوا أنفسهم فيه، ولم يعرفوا للخروج منه سبيلاً.

وبدأ الكمساري يتحرك بعناية شديدة إلى مقدمة السيارة ليتبين ما إذا كان من الممكن إدارة المحرك من جديد وسط شعور غريب ألمّ بالركاب هو خليط من الإعجاب والدهشة في آن واحد.

ووسط المحاولات المضنية للكمساري للوصول إلى الأمام دون أن يخل بتوازن الأوتوبيس أخذ الركاب يتهامسون فيما بينهم، وكان أول المتحدثين وأعلاهم صوتًا هم اللائمون الذين ظلوا يعددون أخطاء السائق.. قالت إحدى السيدات:

- إن هذا السائق المجنون كان يتصور أن الطريق ملكه وحده يسير فيه كيفما يشاء يمينًا ويسارًا دون حساب.

وقال على الفور زوجها الذي كان دائما يتفق معها في الرأي:

- فعلًا.. كان عليه أن يراعي أن الطريق ذو اتجاهين.. لكنه لم يلق بالًا للسيارات القادمة في الاتجاه المضاد..

وهنا تدخل رجل آخر يضع على عينيه نظارة سميكة ويبدو موظفًا بإحدى المصالح الحكومية . .

- لا . . لا . . إنها السرعة . . لقد كان يقود السيارة بسرعة جنونية ولو أنه التزم بالسرعة المقررة لكان بإمكانه تفادي السيارة القادمة أمامه في الاتجاه الآخر . .

وانضمت سيدة تلبس ملاءة سوداء إلى المناقشة قائلة :

- اتجاه واحد إيه واتجاهين إيه؟! إحنا عايزين نخرج من المصيبة اللي إحنا فيها دي .

فرد عليها رجل من مؤخرة السيارة :

يا منجي نجنا من اللي إحنا فيه . . يا قادر على كل شيء . . وكان بين الركاب رجل ضرير غزا الشيب رأسه وزحفت التجاعيد إلى وجهه منذ زمن بعيد . . كان يلبس جلبابًا متواضعًا وفوقه بالطو بني اللون وقد أراح ذقنه فوق ظهري يديه المستقرتين فوق عصاه الغليظة .

ظل الرجل الضرير يستمع إلى الجدل الدائر حوله دون أن يتكلم . . ثم عند لحظة صمت خلال المناقشة رفع الرجل رأسه من فوق عصاه ونطق قائلاً :

- إن هذا الطريق ليس طريقنا . . ونظر الجميع إلى الرجل في دهشة . . ولم تفهم السيدة ما قاله . . ولم يفهم زوجها أيضا . . ونظر إليه الموظف الحكومي فوجده ضريرًا فلم يفهم هو الآخر . . واستمر الصمت لحظات تبادل فيها الركاب النظرات دون أن ينطق منهم أحد . . فقال الضرير :

- يبدو أنكم لم تركبوا هذا الأوتوبيس من قبل ولا تعرفون الطريق الذي عليه أن يسلكه .

فردت عليه السيدة :

ـ إننا نركبه كل يوم منذ انتقلنا أنا وزوجي للسكن بالمقطم قبل أكثر من 20 عامًا . . ورد زوجها على الفور :

ـ إننا نمضي الساعات طوال كل يوم من أيام الأسبوع في هذا الأوتوبيس .

فسألهما العجوز :

ـ ألم تلاحظا أن هذا الطريق ليس طريقنا؟ فبدت على وجه السيدة علامات الدهشة وكذلك زوجها وقالت للعجوز :

ـ صحيح أننا نركب هذا الأوتوبيس كل يوم، لكننا لا نضيع وقتًا طويلاً في النظر إلى الطريق مثل الأطفال الذين ينظرون من الشبابيك .

وقال زوجها :

ـ ليس لدينا وقت للنظر إلى الطريق .

فقال الضرير :

ـ إنني أركب هذا الأوتوبيس منذ افتتح الخط . . وأعرف هذا الطريق عن ظهر قلب . . أعرف كل انحناءة علينا أن نأخذها وكل عثرة علينا تفاديها . . إن هذا ليس طريقنا .

ولم يسمع الضرير أي تعليق أو رد فعل لما قاله ؛ فقال من جديد :

ـ أقول لكم إن الطريق الذي سلكه السائق ليس طريقنا لقد انحرف السائق عن الطريق وأنتم لا تدرون .

وهنا تدخل رجل في مقتبل العمر كان يجلس خلف العجوز مؤكدا أن السائق كان قد اتخذ اليوم طريقًا جديدًا :

ـ لقد كنت أدرك ذلك تمامًا، لكني في الحقيقة تصورت أنه ربما كان هناك إصلاح في الطريق القديم، أو أن السائق يجرب طريقًا أفضل من الطريق القديم الذي أهلكتنا فيه المطبات.

فرد عليه شاب يجلس في مؤخرة السيارة، وقد بدت عليه علامات الانفعال.

ـ وهل يعقل أن يقوم السائق بالتجارب، ومعه هذا العدد من الركاب؟ هل هذا معقول؟ ثم أليس هناك خط سير محدد لكل أوتوبيس عليه أن يسير فيه؟ أم أن المسألة هكذا سداح مداح؟ لكن الرجل قال له:

ـ لا تنس أنه كان السائق، وأن المسئولية كانت مسئوليته هو، وأنت قبلت أن تركب معه.. ولو أنه كان قد أوصلك بالفعل بهذا الطريق إلى حيث كنت تريد لما قلت ما تقوله الآن.

فرد عليه الشاب:

ـ لكنه أوصلني وأوصل معي بقية الركاب إلى هذه المصيبة التي نحن فيها الآن.. ثم إنني لم أختر هذا السائق بالذات لأركب معه.. لقد كان عليّ أن أركب الأوتوبيس على أي حال فهذا هو طريقي.

واحتدمت المناقشة من جديد في الوقت الذي كان الكمساري قد وصل بعد عناء شديد إلى مقدمة السيارة، وأخذ يحاول إدارة المحرك دون جدوي.. فصاح فيهم:

ـ كفى هذا النقاش ولنحاول توجيه طاقتنا إلى ما يمكن أن يساعدنا في إنقاذ الموقف بدلاً من هذا الجدل العقيم.. لقد تأخر الوقت ولانريد أن نضيع ما تبقى من الليل في تقطيع ملابس بعضنا البعض.

ولاحظ الكمساري استجابة من جمهور الأوتوبيس فهدأ من نبرة حديثه وحاول أن يفهمهم ما يقصده:

ـ لماذا تتصرفون وكأنكم متفرجون؟ إن ما حدث لم يكن فيلمًا أو مسرحية نشاهدها، ثم نتناقش حولها لنعرف من المخطئ ومن المصيب.. إننا جميعًا شركاء في هذا الطريق، بل وشركاء أيضًا في المصير.. لن ينجو منا أحد ما لم تتحد جهودنا في الاتجاه الصحيح قبل أن يطلع علينا الصباح.

وأحس الركاب من جديد بخطورة الموقف، وبأنهم ليسوا أمام كمساري عادي، وأحس الكمساري بالدور الذي كان مقدرًا له أن يقوم به، فقال للركاب:

ـ من منكم يرد المساعدة فليأت معي.. أعتقد أنني أعرف ماينبغي أن نفعله حتى ننقذ الموقف.

وعلى الفور نهضت مجموعة من الشباب كانوا يجلسون في مؤخرة السيارة وقالوا للكمساري:

ـ نحن معك.. لكن الكمساري أمرهم بسرعة الجلوس مرة أخرى قائلًا:

ـ لا يجب أن يأتي أحد إلى المقدمة، وإلَّا اختل توازن الأوتوبيس وانزلق إلى الأمام بالركاب.

ونهض رجل آخر دون أن يترك مكانه وقال للكمساري:

ـ إنني سائق فهل تريد أن أدير لك المحرك.

لكن الكمساري قال له:

ـ لا.. إن المحرك به عطل ولن يدور.

فرد عليه الرجل:

ـ ربما أمكنني إصلاحه.

فقال الكمساري:

ـ وحتى إذا أدرنا المحرك وتحرك الأوتوبيس فقد يقفز إلى الأمام فنهلك جميعًا. . فسألته السيدة:

ـ إذن ماذا تريد أن تفعل إذا لم تكن تريد أن يأتي أحد إليك لمساعدتك ولا تريد أن تدير المحرك؟ وقال زوجها:

ـ نعم ماذا تريد؟ فقال الكمساري:

ـ إنني أريد سواعد الشباب منكم. . لن تنقذنا المحركات، بل ستنقذنا سواعدنا القوية. . أريد منكم جميعًا أن تغادروا السيارة من الخلف. . وبما أن الباب الخلفي قد تهشم فلن نستطيع فتحه. . علينا أن نخرج جميعًا من أحد الشبابيك الخلفية.

سيكون على الشباب أن ينزلوا أولًا، ثم يحاولوا إنزال بقية الركاب من الشباك في هدوء ونظام. . بعد ذلك، من يرد منكم العودة إلى منزله فليفعل ذلك، ومن يرد أن يبقى ليساعدني فسأقول له ما ينبغي عمله حتى نعيد الأوتوبيس مرة أخرى إلى الطريق. . وهنا صاح الرجل الضرير:

ـ لا فائدة! فنظر إليه الجميع في فزع وكأنه نذير الشؤم فقال:

ـ لا فائدة في هذا الأوتوبيس. . لقد ضل الطريق ولم يعد فيه فائدة. . فصاح فيه أحد الركاب:

ـ ماذا تقول أيها العجوز المخرف؟

ـ وصاح آخر:

- ألا ترى أن الأوتوبيس قد سد الطريق تمامًا؟ كيف نتركه هكذا ونمضي؟ وحسم الكمساري المناقشة التي كانت على وشك أن تحتدم من جديد قائلاً :

- بعد أن ننزل جميعًا سيتحتم علينا انتشال الأوتوبيس من هذا الوضع الخطر ودفعه مرة أخرى إلى أعلى حتى نفتح الطريق أمام بقية السيارات في الصباح .

وما إن انتهي الكمساري من حديثه حتى تحول الجميع إلى العمل ، فبدأ الشباب ينزلون واحدًا بعد الآخر من الشباك الخلفي بحذر شديد حتى لا يختل توازن الأوتوبيس .

ثم قاموا بعد ذلك بإنزال الركاب واحدا تلو الآخر حتى نزلوا جميعا من الأوتوبيس ، وطوال هذا الوقت كان العجوز الضرير ينظر إلى المشهد دون أن يتكلم ، وقد علت وجهه ابتسامة كتلك التي كثيرًا ما ترتسم على وجوه العميان .

كان الكمساري آخر من ترك الأوتوبيس وكان على العمل أن يستمر ، فجمع الكمساري الشباب وقال لهم :

- أمامنا مهمة شاقة وعلينا أن نرى إن كنا سننجح فيها . . علينا أن نحاول دفع الأوتوبيس إلى الخلف حتى نخرجه من هذا المنحنى الخطر ونعيد عجلاته على الطريق .

وتحول الجميع مرة أخرى إلى العمل، وتصبب العرق من الجباه، وجفت الحلوق، وتعالت الأنفاس وسط هذا الليل الحالك، دون أن يتقاعس أحد أو يشكو .

وظل الجميع يعيدون المحاولة، المرة تلو المرة لكن الأوتوبيس لم يتحرك من مكانه . . ظل كما هو في عرض الطريق يغلقه كالمتاريس العسكرية .

ونظر الكمساري إلى العجوز فوجده مازال يبتسم، وكأن الرجل قد أحس بنظرات الكمساري فقال له على الفور :

ـ لا تضيع وقتك يا بني ولا تبدد طاقات الناس مع هذه السيارة البالية . . قلت لك لا فائدة، وفي لحظة نور وإلهام أدرك الكمساري على الفور ما كان عليه أن يفعله . . وبدون تردد وقف وسط الركاب الذين أخذ العرق يتساقط من جباهم وعلت وجوههم علامات الإجهاد وقال لهم :

ـ لقد حاولنا إنقاذ الأوتوبيس، وكان علينا أن نحاول ذلك بكل الطرق، ولكن يبدو أن كلام شيخنا العجوز هو الحق . . نعم . . إن علينا أن نتخلص من الأوتوبيس . . علينا أن نزيل هذه العقبة الصماء العنيدة ونفتح الطريق أمام السيارات، وإلاًّ فستواجه المنطقة كلها أزمة ضارية عندما يطلع النهار .

ورغم الإعياء الذي استحوذ على الجميع من جراء مجهود الساعات الماضية ، إلَّا أنه كانت قد نشأت بين الكمساري والركاب علاقة ثقة واحترام من خلال المعاناة المشتركة جعلتهم يهمون جميعًا إلى تنفيذ خطته رغم ما كانت تنطوي عليه من مجهود جديد .

وشمَّر الرجال مرة أخرى عن سواعدهم وبدأوا هذه المرة يدفعون بالأوتوبيس إلى سفح الجبل .

وكانت علامات الفجر قد بدأت تظهر في السماء، ولم يكن أمام الركاب وقت طويل لإتمام هذه المهمة فسرعان ما تطلع الشمس ويبدأ تدفق

السيارات في الطريق.

ولكن ما هي إلاَّ دقائق حتى كان الأوتوبيس يتدحرج من فوق قمة الجبل ليلحق بسائقه، وكأنه حيوان عجوز عفى عليه الدهر ولم يعد يصلح للعمل فذهب ليلقى حتفه.

وما إن وصل الأوتوبيس المتهدج إلى أسفل الجبل حتى ارتطم ببعض الأحجار الهائلة فأحدث انفجارًا مدويًا تولدت عنه نيران أضاءت السماء ذاتها قبل أن تطلع الشمس.

ونظر الركاب إلى الطريق فوجدوه سالكًا تمامًا وكأنه لم يشهد أي حوادث أثناء الليل، فتبدد تعبهم.. وحمل الرجال الكمساري على أكتافهم وأخذت النساء تطلقن الزغاريد، بينما كانت الطيور تصيح في السماء معلنة مولد يوم جديد.

شجرة الجميز

كان يومًا شتويًا باردًا، وكانت شجرة الجميز العتيقة مازالت صامدة برغم السنين الطويلة، التي مرت عليها منذ زرعت في أحد شوارع ضاحية المعادي الهادئة قبل أكثر من خمسين عامًا . في ذلك الوقت، كان كل شارع من شوارع المعادي يصطف على جانبيه نوع من أنواع الأشجار يختلف عن أشجار الشارع الآخر، وكان هذا الشارع هو شارع أشجار الجميز.

وفي هذا اليوم، كانت الرياح عاتية وكأن عاصفة قد هبت على المدينة تريد إزاحتها من مكانها. ومع هبوب الرياح مرت على شجرة الجميز ذكريات أيامها التي مضت كشريط سريع ينافس في سرعته سرعة اندفاع الريح، فقد شهدت الشجرة تاريخًا طويلًا منذ كان معظم من يمرون عليها من سكان الشارع من الإنجليز ببشرتهم التي في حمرة لون علم الإمبراطورية البريطانية. حينذاك كانت ضاحية المعادي تمتلئ بالخضرة التي تتوسطها فيللات لا تعلو بأي حال من الأحوال عن ارتفاع الأشجار. أما الآن فها

هي العمارات الأسمنتية الشاهقة تحل محل الفيللات القديمة، التي كانت مقامة في معظمها على الطراز الإنجليزي القديم، والتي هدمت الواحدة منها تلو الأخرى لتفسح المكان لتلك الأبراج التي يتكدس فيها السكان فوق بعضهم بعضًا، لتعلو عشرة أدوار أو عشرين أو ثلاثين.

ولو كانت الفيللات وحدها هي التي تهدمت لكان الأمر أقل خطورة، لكن المؤسف والمحزن هو أن الأشجار التي كانت نابضة بالحياة قد تم اقتلاعها هي الأخرى. فكما اختفت الفيللات القديمة من شوارع الحي الهادئ - أقصد الذي كان هادئًا- اختفت معها أيضًا الأشجار التي كانت شجرتنا تعرفها، كما كان كل سكان المعادي يعرفون بعضهم بعضًا.

كان ذلك كله قبل أن يهجم السكان الجدد على المعادي.. على القاهرة.. على مصر! من أين جاء هؤلاء؟! لم تكن الشجرة تعرف. لقد عرفت الإنجليز، وكانت تميزهم ببشرتهم الحمراء وغلظتهم في التعامل مع السكان. وعرفت أيضًا المصريين ذوي البشرة القمحية الذين كانت تملأ الطيبة قلوبهم، كان عم حسين الجنايني مصريًا.. هو الذي يسقيها يوميًا وينظف الأوراق التي كانت تسقط كلما ظهرت في أغصانها أوراق جديدة. وكان الأطفال في الحي مصريين، كانوا يقذفون لها بحجر صغير فتفيض عليهم بثمارها الشهية وكانت هي أيضًا مصرية، فماذا يمكن أن يكون أكثر مصرية من شجر الجميز؟

إذن، فمن أين جاء ذلك الجنس الغريب الذي أصبح يحيط بالشجرة في حيها الهادئ؟! هم بالطبع ليسوا مصريين. كانوا يشبهون المصريين، لكنهم لا يشتهون ثمارها كالمصريين، لم يكن يبدو أن لهم شهية إلّا للمال

وحده، وذلك ليس مما تعودته الشجرة العتيقة لا من المصريين ولا حتى من الاستعماريين الإنجليز.

كانت شجرة الجميز تشتاق إلى أيام صباها حين كانت تلهو مع النسيم، وتتلامس أغصانها مع أغصان أخواتها على جانبي الطريق، تمامًا كما كان الأطفال تحت ظلها يمسكون بأيديهم بعضهم بعضًا في ألعاب مرحة لا تنتهي.

أين هي تلك الأيام؟ وأين ذهبت الأشجار؟ لقد مضت الأيام يومًا وراء يوم، وسقطت الأشجار الواحدة تلو الأخرى. لم يكن يمر عام إلًا وترى شجرة الجميز إحدى أخواتها تهوي صريعة وسط الطريق وقد خرجت جذورها من باطن الأرض كالحيوانات النافقة التي تستلقي على ظهرها، وقد ارتفعت أرجلها إلى السماء.

كم كانت الشجرة تبكي كلما شاهدت هذا المنظر البشع لإحدى أخواتها ملقاة أمامها بلا حراك، وقد هجرت العصافير الأعشاش التي بنتها بين أغصانها وهبطت عليها الغربان تنعق كالبوم في مقابر الأموات.

كانت كل شجرة تبقى ملقاة هكذا عدة أيام، إلى أن يجيء عمال البلدية بمناشيرهم الصدئة فيمضون اليوم في تقطيع أوصالها وتحميلها على سيارات النقل، ثم يرحلون بها، وما إن يحل الغروب حتى يكون الشارع قد خلا من آثار الشجرة ماعدا الحفرة التي كانت تضم جذورها كالعش الدافئ ويطلع القمر ليجد شجرة الجميز تبكي وسط الليل إحدى رفيقاتها اللاتي رافقنها في رحلة العمر الطويل.

ومع مرور الوقت أصبحت شجرة الجميز وحدها في هذا الشارع، فكلما سقطت شجرة كان مكانها يبقى شاغرًا أو تزرع فيه شجرة أخرى من

الأشجار المعروفة باسم «فيكس بنجامينا» وهي شجرة «شوارع» لا ترقى بأي حال من الأحوال إلى مستوى أشجار الجميز المصرية الأصلية، التي كانت تضفي على الشارع طابعًا خاصًا تعجز عنه أشجار «الفيكس» هذه التي أصبحت الآن تحيط بها من كل جانب، كما تحيط الأبنية الأسمنتية بالقلة القليلة الباقية من فيللات الضاحية القديمة ذات الطراز المعماري المميز.

وبعد أن كانت الشجرة تمضي اليوم تتجاذب أطراف الحديث مع بقية أخواتها من أشجار الجميز الأخرى، أصبح اليوم بأكمله يمضي بها دون أن تتبادل كلمة واحدة مع الأشجار الأخرى التي كانت تتحدث لغة غير ما تعودته من شقيقاتها، وتستخدم كلمات غريبة لم تسمعها من قبل.

لكنها أحيانًا وسط الليل حين كان الجميع يؤون إلى النوم كانت تسمع صوت الأرض يأتيها من الأعماق من تحت الرصيف الأسفلتي ليواسيها قائلاً: لا تبتئسي أيتها الشجرة الجميلة فأنا مازلت معك وسأظل أحتضن جذورك في جوفي كما كانت دائمًا.

كانت الأرض كثيرًا ما تقول لشجرة الجميز العتيقة: إياك أن يدب اليأس في نفسك وإلّا فستهوين كما هوت شقيقاتك الواحدة وراء الأخرى، إنك مازلت قوية وجميلة برغم مرور السنين فاصمدي ولا تذهبي عني فتتركيني وحدي مع شجرات «الفيكس» هذه البلهاء التي لا تكف عن اللغو والضجيج.

وكانت الشجرة ترد على الأرض قائلة: ولكن إلى متى؟ إلى متى أظل أقاوم وقد ذهب الجميع؟ لابد أن يومًا سيأتي أذهب فيه أنا أيضًا كما ذهبت بقية الأشجار.. لابد أن يومًا سيأتي تقطع فيه أوصالي كما حدث لشقيقاتي أمام عيني.

ولم تكن الأرض تعرف كيف ترد على ذلك فكانت تكتفي بالقول: المهم أن نتماسك ونصمد إلى النهاية.

كانت شجرة الجميز ترتاح لحديث الأرض فتغمض عينيها وتنام هانئة إلى أن يطلع عليها النهار، فتبدأ الأشجار الأخرى في لغوها ويبدأ الشارع في الضجيج وتبدأ القصة من جديد.

لكن في هذا اليوم البارد ذي الرياح العاتية لم تنم الشجرة طوال الليل، إلى أن ظهرت أول أشعة الفجر، كانت شجرة الجميز هي أول شجرة ترى الفجر، لأنها كانت أطول الأشجار وأكبرها، وكانت تمضي بعض الوقت تراقب الفجر البعيد في السماء فتراه لم يتغير منذ عرفته في صباها، حين لم تكن العمارات السكنية تقف حائلاً في الأفق، كانت هي التي تعرف مقدم الفجر قبل بقية الأشجار، وقبل العصافير النائمة بين أغصانها.

في هذا اليوم احتضنت الشجرة أول أشعة من شمس الصباح الهادئة بمجرد أن لامست فروعها وقالت لها: كم سأفتقدك! فقالت لها الشمس: ولم هذا الحديث؟ لقد أتيتك اليوم وأنت مازلت شامخة في مكانك، وسآتي إليك غدًا وبعد غدٍ فأجدك دائما في انتظاري كما كنت طوال عمرك.

فدمعت جميع أفرع الشجرة بقطرات الندى التي تركها عليها الليل، وقالت لشمس الصباح: إن كل يوم يمضي يقربني أكثر من النهاية، وأشعر بأني سأمضي قريبًا كما مضت بقية الأشجار. فنهرتها الأرض وقالت لها: إنني لا أرى معنى لهذا الحديث، قد يكون اليوم مكفهرًا عاصفًا لكن غدًا سيكون يومًا جديدًا، ومادمت أحتضن جذورك، ومادمت تتعلقين بأشعة الشمس، فستظلين دائمًا معنا ولن تسقطي أبدًا.

لكن الرياح التي كانت تذهب بكل شيء ، لم يكن ليعجبها هذا الحديث فما إن فتحت الشجرة فمها لترد على الأرض حتى هبت ريح وقحة صفعت الشجرة على وجهها فأسكتتها ، وغضبت الأرض أشد غضب وكاد الفجر يعود أدراجه فلا يجيء في هذا اليوم الذي اقتحمته الرياح العاصفة بلا استئذان، وسألت الأرض شمس الصباح: من أين أتت تلك الرياح الهوجاء؟ إنها ليست من رياحنا؟ فرد عليها الفجر: لقد شاهدتها من بعيد وهي آتية من الشرق، من قلب الصحراء، لكن لم أكن أتصور أنها بهذه الوقاحة! وزادت الريح من شدتها فترنحت الشجرة يمينًا ويسارًا كما لم تفعل من قبل، ثم هبطت فجأة إلى أسفل فأهاجت الأتربة التي كانت مازالت نائمة على الرصيف وقذفت بها في وجه الشجرة فأعمتها تمامًا عن الرؤية، ومرت في هذه اللحظة سيارة نقل كالثور الهائج، وأخرجت من مؤخرتها دخانا أسود كالهباب اختنقت به الشجرة حتى كادت يغشي عليها.

أهكذا يكون الصباح؟ ماذا حدث في الدنيا؟ أين نسيم الفجر العليل؟ أين تغريد العصافير؟ أين تحية الصباح التي كانت تتناقلها الأشجار على امتداد الشارع؟

وشعرت الأرض بما يعتمل في نفس الشجرة ، فاحتضنت جذورها بقوة وقالت لها شمس الصباح : لا تستسلمي، لا تضعفي، إنها لحظات فقط، إن العواصف لاتدوم فتعلقي بأشعتي وستسلمين. وفي هذه اللحظة دخلت الشارع من الناحية المقابلة لسيارة النقل سيارة أخرى لأحد الشباب من أبناء هذا الجنس الجديد الذي غزا البلاد ، وكان شابًا يمضي الليل بطوله في السهر واللهو، ولا يعود إلى البيت إلَّا مع نور الصباح، كانت سيارته أمريكية فارهة

وكان بها جهاز عالي الصوت كأنه مَرْقَصٌ مُتنقلٌ وما كادت السيارة تدخل الشارع حتى كان صوته يرتفع وكأن الشارع قد تحول إلى ناد ليلي.

في هذا الصباح كان الشاب مخمورًا كعادته، ويبدو أنه لم يكن يتوقع وجود سيارات أخرى سائرة في الشارع في هذه الساعة المبكرة من الصباح ففوجئ بسيارة النقل القادمة تجاهه فاندفع بسرعة إلى الجانب الآخر حيث شجرة الجميز فصدمها أسفل جذعها، فصرخت من الألم صرخة مدوية سمعتها بقية أشجار الضاحية .

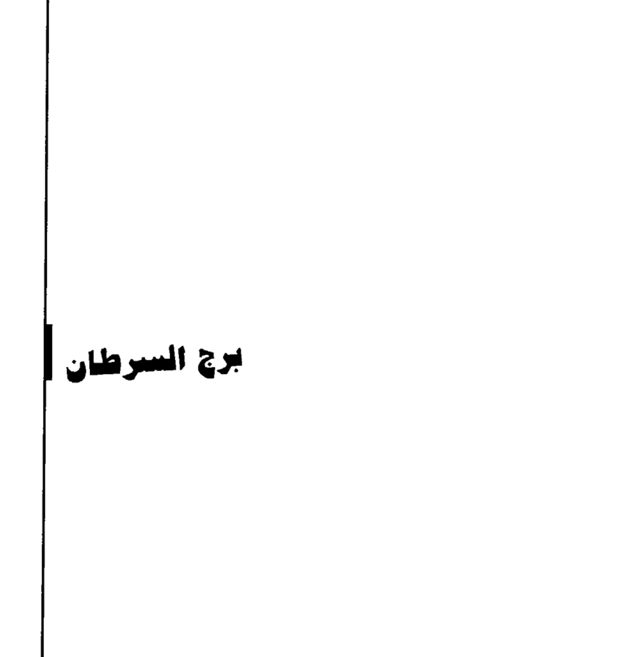
ومن هول الصدمة المفاجئة أرخت الأرض قبضتها عن جذور شجرة الجميز العتيقة، ورفعت الشجرة يديها التي كانت ممسكة بأشعة الشمس، فهوت بسرعة كالحيوان الجريح على أسفلت الطريق، وما إن ارتطمت الشجرة بالأرض حتى تطايرت من بين أغصانها العصافير التي لم تكن قد صحت من نومها بعد، فأخذت تقفز في الهواء كالفئران من السفينة الغارقة.

وفور أن سقطت الشجرة صدمتها سيارة النقل من الناحية الأخرى، لكن الشجرة في هذه المرة لم تصرخ فلم يكن بها صوت. والتاعت الأرض لهول الموقف، وفزعت الشمس، وحاولت كل منهما إفاقة الشجرة، لكنهما لم يفلحا فقد كانت الشجرة قد فارقت الحياة، وأعادت الأرض للشجرة الحديث الذي كانت تحبه لكنها لم تكن تجيب، وربتت الشمس بأشعتها الدافئة على أغصان الشجرة علها تنطق، لكنها ظلت مكانها بلا صوت ولا حراك.

وانتحبت الأرض كما لم تفعل من قبل، واحتجبت الشمس وراء سحابة سوداء لتداري دموعها، وأسقطت حدائق الحي زهورها حزنًا على

شجرة الجميز، وقررت الشمس عدم الظهور في ذلك اليوم الحزين، وارتجت الأرض كأنها تريد التخلص من هذه المخلوقات القبيحة التي تقبع على ظهرها، وعربدت الرياح يمينًا ويسارًا دون أن يوقفها أحد، وافتقرت الضاحية الهادئة؛ لأنها فقدت شجرة أخرى من أجمل أشجارها التي تعودت وجودها منذ نشأتها قبل سنين.

لكن ما هي إلَّا دقائق وبدأت الضوضاء تسري في الشارع، وسمعت الأرض راكبي السيارات يقولون: يا لهذه الشجرة اللعينة! لقد سقطت في عرض الشارع وسدت علينا الطريق! ومن داخل إحدى السيارات الفارهة جاء صوت يقول: ما شجر الجميز هذا؟ أنحن في الأرياف هنا؟ ومن داخل سيارة أخرى صاح أحد الركاب: ياللمصيبة انظروا كيف حطمت الشجرة تلك السيارة الجميلة! وقال أحد السكان وهو ينزل من البيت ويهم بركوب سيارته: لماذا لا يقتلعون تلك الأشجار القديمة التي لافائدة منها؟!



برج السرطان

أزعم أنني اكتشفت نوعًا جديدًا من السرطان أشد فتكًا من المرض المعروف بهذا الاسم وأكثر خطرًا: إنه السرطان البشري . ذلك المرض الذي يتولد عن علاقة إنسانية فيستبد بالإنسان إلى أن يقضي عليه تمامًا .

هو ذلك المرض الذي يتضخم في جسد الإنسان فيضغط على بقية الأعضاء حتى يكاد يسحقها .

إنه المرض الذي لا يجدي معه البتر أو الاستئصال، بعد أن يكون قد انتشر واستشرى ليس في الجسد فقط، وإنما في كيان الإنسان ذاته، ثم يفتك به بعد ذلك .

نعم اكتشفت هذا المرض فقد أصابني منذ أشهر قليلة والآن ها أنا أنتظر نهايتي !

رأيت محاسن لأول مرة عندما كنت مارًا بسيارتى أمام أحد الملاهي المعروفة بشارع الهرم، كانت واقفة أمام مدخل الملهى، ولم أكن قد رأيت

أحدًا بمثل هذا الجمال من قبل، ولست أعرف ماذا أصابني بالضبط؟! لكني وجدت نفسي أعود أدراجي مرة أخرى بعد أن كنت قد تخطيت الملهى لأنظر إليها من جديد :

كانت ترتدي فستانًا أسود بسيطًا لكنه عاري الصدر والكتفين.

لم أستطع أن أمكث طويلاً أمام الملهى، فلم تكن لي خبرة سابقة بحياة الليل والملاهي، وأحسست بشيء من الارتباك عند مرور أول سيارة من خلفي وإضاءتها الأنوار المبهرة عند اقترابها من سيارتي الواقفة أمام الملهى، فضغطت بسرعة على بدال البنزين وانطلقت مسرعًا من أمام الملهى.

ولكن بعد أن اختفى الملهى من أمامي بأنواره الملونة، ظهرت في مخيلتي من جديد صورة تلك الفتاة ذات الرداء الأسود، فوجدتني فجأة أخشى من أن تكون تلك المرة هي الأولى والأخيرة التي يقع نظري عليها.. لماذا لا أعود لأنظر إليها مرة أخرى قبل أن أذهب لذلك المريض الذي كنت ذاهبا لزيارته بشارع الهرم؟

وعدت أدراجي مرة أخرى إلى الشارع حيث كانت تقف محاسن، متمنيًا أن أجدها مازالت في مكانها، وللحظة ساءلت نفسي : هل أنا مدرك لما أفعل؟ ماذا أريد بالضبط؟ هل سأنظر إليها فقط.... نظرة أخيرة؟ أم أنني أريد التحدث إليها؟ إنني لم أقابل في حياتي واحدة من بنات الهوى، ولا أعرف ماذا يقال لهن في مثل هذه المواقف؟ هل أتحدث إليها كما كنت أتحدث إلى صديقاتي القديمات قبل الزواج أم أن هناك أسلوبًا آخر؟

ووجدتني قد تماديت في تفكيري بأكثر مما يجب، وبهرتني أضواء الملهى من جديد، لكني أدركت أنه يجب أن أترك هذا اللهو وأستمر في طريقي إلى منزل ذلك المريض.

وقبل أن أقوم بأي حركة وجدت محاسن فجأة تجلس إلى جانبي في السيارة، نعم هكذا دون مقدمات فتحت باب السيارة ودخلت لتقول: « مساء الخير ».

كانت محاسن قد اتخذت لي القرار الذي لم أستطع اتخاذه وحدي.. فوجدتني أنطلق بالسيارة بأقصى سرعة.

لم نتبادل أي كلمات، وبعد لحظات أرادت محاسن أن تقطع الصمت، فسألتني: تحت أي برج ولدت؟ وفور سماع ردي أو ربما قبل أن تسمعه، قالت على الفور: إننا سنتفق تمامًا، فهي قد ولدت تحت برج السرطان وهو برج لا يتفق إلَّا مع القليل من الأبراج ومن بينها برجي.

وكأنما كان ذلك كل ما يهمها معرفته فساد الصمت بيننا من جديد ولكن عندما ضمنا الفراش في تلك الليلة الباردة من شهر نوفمبر لم نتوقف عن الحديث إلا عندما أطلت علينا شمس اليوم التالي.. تسألنا عما نفعل في وضح النهار؟ وتذكرني بأن لي بيتا وأولادًا وعملاً يجب أن أذهب إليه.

في تلك الليلة خلعت محاسن رداءها الأسود العاري الصدر والكتفين، فظهر جسدها الأبيض، ومسحت مساحيقها الكثيفة فأطلت روحها تقول لي: أنقذني مما أنا فيه. لقد حدثت لكل شاب في سن المراهقة تلك القصة القديمة حين تعرّف لأول مرة في حياته على بائعة الهوى، فكان سؤاله الساذج: ما الذي جعلك تصبحين هكذا؟ وقد سمعنا جميعًا الرد التقليدي: إنني أجري على أولادي بعد أن توفى زوجي، أوإن والدي توفى وتزوجت والدتي من بعده من شخص قاسي القلب.. إلى آخر تلك الروايات التي طالما كانت مادة جيدة للأفلام المصرية في الأربعينيات.

لكن تلك ليست قصتي، إنني رجل تعديت الأربعين، وأعتقد أنني وصلت إلى درجة من الخبرة بالحياة تجعلني محصنًا ضد مثل هذه السقطات الساذجة التي قد تحدث للشباب . . كما أن أسرتي تستحوذ على قدر كبير من وقتي واهتمامي، فلست ممن لديهم فراغ عاطفي، يجعلهم يقعون فريسة سهلة لأول شخص يظهر لهم قدرًا من العطف أو الاهتمام . . ثم إن لي مركزًا اجتماعيًا مرموقًا يكاد يحدد لي نوعية الأشخاص الذين بإمكاني أن أظهر معهم في الأماكن العامة، فأنا طبيب جراح أملك مستشفى خاصًا يأتيه المرضى من جميع أنحاء الوطن العربي لما له من سمعة طيبة واحترام .

ولكن ما معنى كل ذلك وما جدواه أمام عيني محاسن، وما كانت تقوله لي عيناها في كل مرة كنت ألقاها؟

لقد أصبحت أرى محاسن كل أسبوع بشكل لا إرادي، ثم مرتين في الأسبوع، ثم كل يوم .

وعلمت الكثير عن محاسن . . علمت أنها انجرفت في هذا التيار حديثًا، وأنها من عائلة فاضلة، فوالدها زار بيت الله أكثر من مرة، ووالدتها لا تكاد تترك سجادة الصلاة ،وأخوها يقضي كل وقته في الرياضة وهو عضو فريق الكرة بأحد النوادي .

تحت مساحيق محاسن وثوبها الأسود وجدت أو هكذا خيِّل لي كيانًا صافيًا رقراقًا كمياه الأنهار، وفي كل مرة كنت أقابل محاسن، وفي كل مرة كان يسقط ثوبها الأسود ذو الصدر العاري والكتفين ،كان يظهر جسدها المرمري وكانت تطل روحها من عينيها تقولي لي في صمت : انتشلني مما أنا فيه . . كانت عيناها تقولان لي وما أكثر ما قالتاه لي إنها تتشوق إلى حياة

جديدة كحياة سائر الفتيات .

لقد كانت تعرف أنها جميلة، وكانت تعرف أيضًا أن جمالها سر تعاستها، فهى لا تذكر أبدًا أن وقع نظر رجل عليها دون أن يشتهيها، ودون أن يعرض عليها كل ما تريد. . لكنها كانت تبحث عن رجل لا يستهويه جسدها وإنما تجذبه روحها. . . . هكذا قالت لي محاسن.

وعلمت ـ ولم تكن معلوماتي كلها عن محاسن ما كانت تكفي لتأكيد إحساسي بما يعتمل في نفسها، وما كانت تصبو إليه فقررت أن أساعدها .

هناك من يمنحون أنفسهم للعلم أو للرهبنة أو للوطن، دون أن يكون لهم شاغل آخر، أما أنا فقررت أن أكرس وقتي كله لمحاسن. . إن إنقاذ حياة إنسان واحد وانتشاله من الرذيلة إلى الفضيلة ومن التردي إلى الكمال، يتساويان مع أي قضية عامة يمكن أن يكرس لها الإنسان حياته .

وبدأت مع محاسن من البداية تماما، ماذا ينقصها؟ المال؟ جعلت لها راتبًا شهريًا يكفي احتياجاتها الأساسية، ثم ينقصها التعليم الذي حالت ظروفها العائلية دون إتمامه. . فاتفقنا على أن تنتظم بأحد معاهد الدراسة، وكنت أراجع معها دروسها بنفسي. . ولقد فاقت محاسن جميع توقعاتي، لم أكن أصدق عيني وأنا أراها تأخذ كتبها وتذهب للمعهد لتتلقى الدروس.

لكن كم كانت تساورني الشكوك في تلك الساعات القليلة حين لا أكون معها، لم أكن أعرف أين تذهب، كنت أعرف مواعيد دروسها الخصوصية، وكنت أذهب إلى المعهد دون أن تدري لأرى ما إذا كانت ستأتي للدرس أم لا، وفي كل مرة كنت أجدها هناك في الموعد المحدد فتتبدد شكوكي،

وكنت أذهب أيضًا إلى ذلك الملهى بشارع الهرم والذي كانت الساعات التي تقضيها فيه أكثر من تلك التي كانت تقضيها في بيتها ،لكني لم أكن أجدها، وكنت أسأل عنها فيقولون لي إنها لم تعد تأتي .

وتغيرت حياة محاسن، في ظرف شهرين فقط، وتغير مظهرها فلم يكن أحد من معارفها القدامى يتعرف عليها من النظرة الأولى، لكني كنت أعلم طوال الوقت أنها لابد ستضعف في يوم ما ،ولم أكن أخاف من ذلك فهي لم تتجاوز الرابعة والعشرين، والإغراء سيكون قويًا، وكنت أقول لها ذلك بصراحة . فطريق التقدم ليس خطًا مستقيمًا، وإنما هو خط متعرج فيه الصعود والهبوط ،لكنه بكل انحناءاته الصاعدة والهابطة يتجه إلى أعلى . . قلت لها : « قولي لي عندما تخطئين وسأقف إلى جانبك وسأساعدك؟» .

وبالطبع حدث ما كنت أتوقع . . ولم أنقض وعدي ،كنت أساعدها في كل مرة على العودة إلي الطريق السليم من جديد . . في بعض المرات كانت هي التي تعترف لي بخطيئتها، ومرات أخرى كنت أنا الذي أكتشفها حين كنت أجوب المدينة كالمجنون أبحث عنها خلال الساعات القليلة من اليوم، التي لم تكن معي فيها فأرى ما لم أكن أود رؤيته..

وبدأت أكتشف أن حياتي تحولت تدريجيًا إلى جحيم لا يطاق، لا ليس هو الحب ما أشعر به . . هو شيء مختلف . . هو أقرب إلى المرض الذي يستحوذ عليك دون أن تكون لك حيلة إزاءه . . لقد كنت أرى محاسن في كل شيء أمامي: في وجوه أعضاء مجلس الإدارة بالمستشفي ،والذين لم أعد أفهم ما يقولون، في أجساد المرضى في حجرة العمليات، كنت أسمع صوتها في أحاديث ضيوفنا على العشاء، وكنت أراها في عيني زوجتي وهي

تسألني عما أصابني، كنت أقضي الليل ساهرًا أراجع ماقالته لي في ذلك اليوم وما قلته لها، وأسائل نفسي: أهي صادقة أم أنني ساذج؟

إلى أن جاء يوم قام بوليس الآداب بمداهمة الملهى الليلي، وعلمت أنه قد تم القبض على محاسن في الملهى وهي تجالس أحد الأجانب، وصعد الدم إلى رأسي وصرت كالمجنون، ليس غضبًا من محاسن ولكن خوفًا عليها.. وتغاضيت عن أي اعتبارات أخرى وتدخلت للإفراج عن محاسن، فعلتها دون أن أفكر في أي شيء آخر إلّا مصلحتها الشخصية.. وعادت محاسن مرة أخرى إلى الدراسة والاستقامة بعد مواجهة عنيفة بيننا لم أحاسبها فيها عما فعلته بي، وإنما عما فعلته بنفسها.

وتكررت هذه الواقعة حين كنت أقوم أنا وليس بوليس الآداب بمداهمة الملهى.. وفي كل مرة كانت تأتي معي محاسن كالحمل الوديع، لتعدني والدموع في عينيها بأنها لن تعود إلى هذا الطريق مرة أخرى.

وبالفعل لم أكن أجد محاسن بعد ذلك في الملهى الذي أصبحت الآن أمر عليه بطريقة شبه منتظمة ،وتصورت أنني نجحت، بل إن محاسن هي التي نجحت في أن تخلع ثوبها الأسود القديم العاري الصدر لتعطي لمحاسن الحقيقية الفرصة لأن تنمو وتزدهر، فيكون لها ما كانت تريده دائمًا من حياة شريفة ومحترمة.

ولكن بين آن وآخر كان يستبد بي ذلك الشك ،ويستشري في كياني.. كنت أشعر بآلام مبرحة في كياني كله، واستحواذ كامل على تفكيري ووجداني.. هل هي آلام الحب نفسه والتي بدونها لا يكون الحب حبًا؟ أم أنها آلام الشك الذي لا يترك لي لحظة راحة واحدة لا في الليل ولا في

النهار؟ أم أنها آلام مرض أصبت به وليس له علاج؟

إنها ليست قصة تاييس التي ظن الراهب أنه يستطيع هدايتها إلى الطريق القويم فغوته هي إلى الرذيلة. . ولا هي قصة بيجماليون الذي صنع حبيبته بيديه تمثالاً جميلاً، ثم طلب من الرب أن تدب فيه الحياة فأجابه الله إلى طلبه، لكنه برغم حبه العظيم لحبيبته ورغم أنه هو صانعها، لم يستطع أن يستحوذ على قلبها. . ولا هي عقدة لوليتا التي يقع بعض الرجال فريسة لها حين تتقدم بهم السن فيتجهون باهتمامهم إلى الفتيات في سن المراهقة.

حالتي ليس توصيفها في عالم الأدب، وإنما تشخيصها في مجال الطب، هي مرض من تلك الأمراض التي تعرف في الطب الحديث باسم «سايكوسوماتيك» والتي لا تكون عضوية أو نفسية، وإنما هي عضوية ونفسية في آن واحد. . إنه سرطان من نوع جديد يستحوذ على الإنسان ويتغذى عليه جسديًا ونفسيًا في نفس الوقت.

كان قد مضى حوالي شهر على آخر مرة زلت فيها محاسن ووعدت ألّا تكررها، وطوال ذلك الشهر لم تكن محاسن تذهب إلى الملهى، لكن مع ذلك كنت أحس بأن هناك شيئًا ما تخبئه عني. وذهبت إلى المعهد ووقفت داخل باب العمارة المقابلة لمبنى المعهد لكي أراها دون أن تراني، وانتظرت لمدة ساعة كاملة لكني لم أرها، بل رأيت إحدى مريضاتي التي دخلت العمارة التي كنت أقف بداخلها، ولابد أنها استغربت اختبائي هكذا في مدخل العمارة.

وفي المساء ذهبت للملهى وكالمعتاد لم أجدها هناك، لكني وجدت إحدى صديقاتها القديمات ،والتي وجدت من إلحاحي في السؤال عن

محاسن أنني في حاجة ماسة إليها فقالت لي الصديقة : ماذا تعطيني لو قلت لك عن مكان صديقتك؟ ولا أدري ماذا بدا على وجهي من تعبير ؟فقد قالت لي وقد استبد بها الذعر : «ماذا ألم بك؟ »ثم أضافت مباشرة : « على أي حال لن أحيرك كثيرًا ، لقد نقلت محاسن نشاطها إلى حانة أخرى ، لكنني لا أعرف اسمها » .

ولم أشكر تلك الغانية العجوز التي تستطيع أن تبيعك أي شيء مقابل المال حتى ولو كان ذلك الشيء هو تعاستك ، لم أشكرها ولم أودعها ، فقط تركتها وانصرفت بسرعة حتى لا أطبق على رقبتها انتقامًا على ما قالته لي من كذب وافتراء .

ثم جاءني أحد الأشخاص الذين كنت أدفع لهم راتبًا شهريًا ليأتوني بأخبار محاسن ليخبرني هو الآخر بأن الملهى الذي تذهب إليه الآن هو ملهى جديد من الدرجة الثالثة ، وأنها هناك تقابل جميع معارفها القدامى . . أسماء كثيرة كنت أعرفها وأعرف عنها الكثير ، مما كانت تقصه عليّ محاسن أحيانًا في شكل اعترافات وأحيانًا أخرى في شكل نوادر وذكريات .

وقال لي مبلغي إنه بإمكانه أن يخبرني مسبقًا باليوم الذي ستذهب فيه محاسن إلى ذلك الملهى ، لكي أراها هناك بنفسي إذا شئت . وكانت تلك هي لحظة الحسم ، اللحظة التي يقرر فيها الجراح أن العملية يجب أن تتم على وجه السرعة ، قبل أن تحدث مضاعفات غير مأمونة العواقب فقد فشلت جميع أنواع العلاج . .

وهكذا قررت أن أجري العملية التي تجرى في حالات السرطان : الاستئصال ! نعم قررت أن أستأصل محاسن من حياتي ، سأنفصل عنها ،

لن أراها بعد اليوم، سأضع بنفسي نهاية لهذه العلاقة التي أصبحت تستنزف كل كياني .

كم من المرضى تم استئصال أجزاء مختلفة من أجسادهم خلاصًا من هذا المرض الخبيث، منهم من استأصل طحاله أو أمعاءه ومنهم من استأصلت ثديها . . لقد قمت بنفسي بإجراء عملية جريئة كانت حديث الأوساط الطبية منذ سنوات حين جاءني رجل اكتشفت أنه مصاب بسرطان الجلد، وكان المرض مركزًا في جلد وجهه فقمت بإجراء العملية واستأصلت جلد الوجه بالكامل، ثم أجريت لوجهه عملية ترقيع من جلد الفخذين وشفي الرجل تمامًا ولم يعاوده المرض بعد ذلك .

والآن جاء الوقت لكي أجري العملية لنفسي . . صحيح أنني سأستأصل قلبي ذاته، لكنني سأشفى وسأعود معافى سليمًا إلى عملي الذي كنت قد هجرته . . وإلى بيتي الذي كنت أدخله وأخرج منه دون أن أشعر بمن فيه . . وسأعود إلى الحب مرة أخرى . . الحب الذي يجعل الحياة جميلة ويدفع الإنسان دائمًا إلى الأمام . . الحب الذي كانت تحيطني به أسرتي من كل جانب وكنت أخاف أن أنظر إليه حتى لا يلهيني عن محاسن . . باختصار سأعود إلى الحياة .

كنت أعرف مقدمًا أنني سأمر بفترة صعبة في البداية، لكنها لازمة فهي فترة النقاهة، لكني كنت أعلم أيضًا أنني بعد ذلك سأسترد شهيتي للحياة، سأعود فأرى الخضرة في الأشجار وأرى النجوم في السماء .

اتخذت قراري وسافرت خارج القاهرة حتى لا أرى محاسن فيتبخر غضبي، كما كان يحدث في كل مرة حين كانت تتوسل إليّ ألا أتركها دون

أن تفتح فمها أو تتفوه بكلمة واحدة .

كم راجعت نفسي طوال تلك الأيام التي قضيتها بعيدا عن القاهرة : ألم يكن من الأفضل أن أساعد هذه المخلوقة المسكينة بدلاً من أن أتركها هكذا تتحطم كالسفينة التي هجرها ربانها في بحور غير آمنة؟ لكنني كنت أعود وأتذكر أنني ساعدتها كما لم يساعدها أحد من قبل، وأتذكر أيضا أنها خدعتني وخانتني مع أناس كانت تعرف مقدار ازدرائي لهم، لقد قررت بنفسها أنها تفضل صحبتهم على أي شيء آخر، وكان كل إنجاز لها في حياتها الجديدة معي يصب في النهاية مع هذه الصحبة السيئة التي لا أقبل أن تشاركني في محاسن.

لقد طعنتني محاسن في رجولتي وفي كبريائي، حين أشركت هؤلاء الأشخاص في حياتنا. . لقد كانوا على علم بكل ما كان بين صديقتهم وذلك الجراح الأبله الذي كان يغمرها بالهدايا ويأخذها للطبيب للعلاج ويراجع معها دروسها .

لا ليس هناك علاج سوى البتر والاستئصال ! لن أذهب إلى ذلك الملهى الرخيص، لن أطأ بقدمي ذلك المكان الموبوء، ولن أواجه محاسن، ماذا سأقول لها؟ إنها تعرف ما سأقوله لها فإما أنها ستنكر ما حدث، وهذا سيؤكد اقتناعي بأنها تكذب عليّ ، وإما أنها ستعترف ونبدأ القصة من جديد إلى أن نصل إلى الزلة القادمة. . فما فائدة مواجهتها بذلك وتكرار محاولة إعادتها للطريق القويم مرة أخرى؟ ومضت الأيام طويلة ومريرة وأنا أقاوم. . لم أستجب لمحاولاتها المتكررة لمقابلتي. . ولم أستجب لما كان ينتابني بين الحين والحين من تصور بأنني سأستريح أكثر إذا رأيتها مرة أو مرتين

حتى يصل الموضوع إلى نهايته بشكل تدريجي . لقد كنت أعلم أن حالتي لن يجدي معها إلا الاستئصال، لذلك لجأت للجراحة وأجريت العملية وانتظرت انقضاء فترة النقاهة . . ستأخذ أسابيع ليس أكثر لكنها ستنقضي .

ومضت الأسابيع ومضت الشهور دون أن أرى محاسن، لكن إحساسي بالألم ظل كما هو لم يتغير، ماذا حدث؟ هل فشلت العملية؟

لقد استحوذت محاسن بعد أن تركتها على جسدي ووجداني وقلبي وروحي، كما لم تفعل من قبل فزاد حبي لها وازداد قلقي على مصيرها . . ألم يكن من الأفضل أن أساعدها بدلاً من أن أتركها هكذا؟ وأعود فأتذكر ما كانت تقوله لي من أنني لو تركتها فإن حياتها ستتحطم، وأشفق عليها، ثم أتذكر أيضًا أنها خدعتني، لكنها أضرت بنفسها أيضًا فكيف أحاسبها على ما فعلته بي أنا؟

لقد سيطرت محاسن على حياتي بعد أن تركتها أكثر من ذي قبل فأصبحت لا أفكر إلاَّ فيها ولا أرى أمامي سواها، إنني أخجل من سرد تفاصيل يومي الذي أبدؤه بقراءة حظها بالصحف تحت برج السرطان، والذي كانت تحرص علي قراءته كل يوم ، لأعرف ما إذا كان يومها سيكون يوم سعيد « أم أنها » ستواجه مشاكل « أو أنها» ستسافر « أو أنها » ستتلقى رسالة من بعيد « أو أن » المياه ستعود إلى مجاريها إلى آخر هذه الجمل التي حفظتها عن ظهر قلب . .

وتمضي بقية يومي على نفس المنوال، فأخرج هائمًا على وجهي، أسير في نفس الطرقات التي كنا نسير بها وأزور نفس المطاعم التي كنا نأكل بها، وأتذكر حديثها إليَّ وما كانت تقوله لي محاسن بعينيها ! كم تحدثت إلى

روحها من خلال عينيها ! مازلت أنظر في واجهات المحلات لأرى ماذا يناسب محاسن من ملابس أو ما يمكن أن تقرأه من كتب، لقد كانت قد بدأت تكوّن لنفسها مكتبة صغيرة من بعض الكتب التي كنت أنتقيها لها، بحيث تكون مفيدة لثقافتها العامة دون أن تصيبها بالسأم .

لم أعد الآن أذهب إلى المستشفى ، فلم أعد أقوى على إجراء العمليات بعد أن أصبح المشرط يرتعد في يدي من شدة خوفي مما يمكن أن أرتكبه في المريض من هفوات خطيرة . .

ولم أعد أمضي أي وقت في بيتي بعد أن أصبت بالصمم والبكم حيال كل ما تقوله لي زوجتي أو أولادي .

لقد اكتشف بعد انقضاء تسعة أشهر، أن المرض لا يزال بداخلي . . بل هو ينشط أكثر من ذي قبل . . فمع كل يوم جديد يستشري حب محاسن أكثر في كياني، وتصاحبه آلام مبرحة في جسدي وروحي لم تعد تجدي معها المسكنات . .

لقد كانت محاسن هي المسكن الوحيد لهذه الآلام، وها هي الآن بعيدة عني، فماذا أفعل بهذه الآلام، التي لا قِبَلَ لبشر بها؟

لم يجد العلاج . لم يجد الاستئصال . لم تجد النقاهة .

نعم لقد فشلت العملية، لأول مرة في حياتي أجري عملية فاشلة . . لقد نسيت حقيقة طبية مهمة وهي أنه في بعض حالات السرطان المتقدمة، فإن الجراحة لا تقضي على المرض . . وإنما على العكس تنشطه . . وفي مثل هذه الحالات فإن دور الطب ينتهي ويصبح الخلاص الوحيد للمريض من آلامه هو حين يقضي الله أمرًا كان مفعولاً !

رحيل جواد أشهب

مرثية فنان تشكيلي

ما أجمل أن يكون الرحيل في الخريف، بعد زوال ضجيج الصيف وحرارته وعودة الحياة إلى سكونها ودفئها الهادئ المريح. حين يعود كل إلى داره سالمًا راضيًا فيعرف الاستقرار ويخلد إلى الراحة.

صباح يوم من أيام الخريف رحل الجواد بعد حياة حافلة بالحركة والنشاط.. ما إن بزغت شمس النهار الجديد بعد ساعات الليل الطوال، حتى رحل إلى حيث كان يتطلع طوال حياته.. هناك.. فوق المآذن والقباب.. حيث السكينة الأبدية.. حيث الخلود..

كان شابًا فتيًا دائم الترحال، جاب جميع أرجاء الدنيا وركض في كل اتجاه، لكن قلبه لم يكن يحمل إلّا صورة واحدة.. مشهد قباب المساجد ومآذنها التي ترتفع شامخة في سماء القاهرة.

ولد في حي القلعة القديمة، وسط قطعان غفيرة من الجياد، لكنه كان

مختلفًا عنهم جميعًا . . كانت الجياد من حوله بيضاء كالحة أو سوداء داكنة ، لكنه كان أشهب فيه بياض حالم كالسحاب ، وسواد مخملي كالليل ، وتزين جبهته غرة بيضاء كأنها التاج الملكي .

كان جوادًا جامحًا لا يخفت له صهيل ولا تسكن له حركة . . في دورانه المستمر كان يرسم دوائر متداخلة متكررة هي حلقات قباب مساجد السلطان حسن ، والحسين الشريف وجامع صلاح الدين . . دوائر لا نهائية تخترقها خطوط رأسية هي المآذن الشاهقة المدببة كريشة الفنان .

لكن حقد بعض أقرانه من الجياد البيضاء الكالحة أو السوداء الداكنة ، كان يطارده في كل مكان كالقطة الضالة التي تبحث عن صاحبها ، وهو في حركته الدائمة الدائبة لم يكن يعبأ لذلك . . كانت عيناه اللوزيتان الكحيلتان على جانبي غرته البيضاء الناصعة تتجهان دائمًا إلى أعلى ، حيث قباب المساجد التي ولد في كنفها وأحبها ، حيث المآذن التي كانت تصعد به إلى العنان في السماء .

كان دائمًا يتحدث إلى أبناء الحي عن الارتفاعات الشاهقة ، حيث الزرقة والاتساع ، الذي كانوا يتطلعون إليه ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون كيف يفعلون ذلك . . هو وحده الذي كان يعرف . . هو وحده الذي كان يستطيع أن يصعد على سرجه الجميل المطعم بالذهب والفضة إلى قمم المآذن . . إلى ظهر القباب .

لكن أقرانه من الجياد الأخرى البيضاء والسوداء ، ، لم تكن لتسكت على ذلك . . ألا يكفي أنه أشهب وهي كالحة أو داكنة؟! هل سيتحول أيضًا إلى معبود للناس يقودهم إلى تلك الأعالي التي يتطلعون إليها؟! يجب أن يتم

تقييده بالحبال حتى لا يصعد إلى المآذن والقباب . . حتى لا يرتفع بالناس إلى هناك . . إلى العنان في كبد السماء .

لكن الجواد كان قويًا فتيًا فلم يقدروا عليه . . اكتفوا بمعايرته بشهبته البيضاء . . قالوا إنه لا هو بأبيض ولا بأسود . . قالوا إنه بين بين .

أما عند الناس فقد بدأ صيته ينتشر ويذيع ، بدأ أبناء الأحياء المجاورة يفدون إلى حي القلعة القديمة لينصتوا إليه وهو يحدثهم عن قمم المآذن وعن ظهر القباب .

وفي ليل بهيم بينما كان الجواد الأشهب نائمًا ، تسللت إليه بعض الجياد السوداء فلم يتبينها أحد في جنح الليل ، ثم غرس أحدهم خنجره المسموم في كبده وفروا جميعًا هاربين .

وفي الصباح بدأ السم يزحف على جسد الجواد فيصيبه على الفور بالهزال . ويفقده حركته ، ويُذْبِلُ عينيه اللوزيتين ، فخر الجواد على الأرض غير قادر على الحركة ، ثم جاءته الجياد البيضاء الكالحة في وضح النهار فقيدته بالحبال ، وكممت فمه الذي توقف عن الصهيل وسرقت سرجه المطعم بالذهب والفضة .

وعندما شاهد أهل الحي سرج الجواد الأشهب يباع في الأسواق بأبخس الأسعار ، أدركوا أنه لابد قد أصابه مكروه فهرعوا إليه ليروا ما حدث ، لكنهم حين وصلوا إليه كان قد فقد الوعي ولم يعد يدري ما يجري حوله . . فقط حين تعالى صوت بكاء الناس من حوله . . رفع جفنيه لأول مرة . . لكنه لم يرهم . . كانت عيناه قد فقدتا بياضهما الناصع وتحولتا إلى صفرة مريضة . . أحس بالناس من حوله دون أن يراهم . . حاول أن يتبينهم فلم يستطع . .

حاول مرة أخرى الفكاك من قيوده فلم يقدر . . حاول الصهيل فلم يصدر عنه صوت .

كم كانت معاناته وهو مقيد لايستطيع الحراك، لايستطيع القيام، لايستطيع الصهيل، لايستطيع الصعود . . وكم حزن الناس، وقد فقد القدرة على أن يحدثهم ويحثهم على الصعود إلى قمم المآذن . . إلى أعلى القباب .

ومرت الأيام طويلة قاسية مريرة ، والجواد الأشهب في مرقده والقيود تضغط على جيده الهزيل وتزداد إحكامًا حول معصمه وعلى فمه وفوق عينيه . . وفي النهاية دون أن يفتح الجواد عينيه ودون أن يفتح فمه . . نظر إلى ربه وحدثه . . تضرع إليه في خشوع . . رجاه بكل ما تبقى به من قوة أن يصعد به إلى السماء . . فهو لا يستطيع أن يبقى طويلًا طريحًا على الأرض ، بعد أن عاش حياته كلها يتطلع إلى هناك . . فوق المآذن والقباب .

أمضى الليل بطوله يحدث ربه ، ومن عينيه الصفراوين انهمرت الأنهار غزيرة دافئة . . ومع فجر اليوم التالي كان قد ظهر على جانبي الجواد جناحان كبيران بدآ يتحركان في بطء إلى أعلى وإلى أسفل . . إلى أعلى وإلى أسفل . . حتى ارتفعا بجسده الهزيل عن الأرض شيئًا فشيئًا . . وماهي إلا لحظات حتى كان هناك . . فوق قمم المآذن . . . . وفوق ظهر القباب .

وفي الصباح شاهده الناس بين السحب في السماء يصهل بين المآذن ، يطير فوق القباب ، وقد التمع جسده تحت أشعة شمس الخريف الهادئة . . كان يشع على الأرض ضوءًا نورانيًا نادرًا . . أخذ يمطر المآذن والقباب بالورد والزهور والرياحين من كل نوع ولون . . وتوافد أبناء الأحياء في

الساحة ليشاهدوا جوادهم الأشهب مشدوهين.. بمنظره في السماء وهو يضرب بجناحين، فيبدو وكأنه البراق، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الثقة بأنهم، رغم كل الصعاب سيتمكنون هم أيضًا من التحليق مثله في يوم من الأيام، هناك حيث لن يطولهم ولا يطاولهم أحد.. هناك.. فوق قمم المآذن.. فوق ظهر القباب.



الفواخير

في منطقة الفسطاط خلف جامع عمرو بن العاص تمتد مساحة تملؤها أبنية طينية ذات معمار بدائي نصف كروي . . تلك هي أفران حرق الفخار التي تعرف لأهل المنطقة باسم الفواخير . . وأقدم فواخير الفسطاط جميعًا هي فاخورة عم صالح .

ولد عم صالح قبل أكثر من ثمانين عامًا ، أو ربما من آلاف السنين ، فقد شب أبناء الفسطاط ليجدوا عم صالح عجوزًا كما هو الآن .

لم يذهب عم صالح إلى المدرسة ،ولم يتعلم القراءة والكتابة ولم يمارس في حياته أي صنعة أخرى سوى تلك التي وجد أباه يمارسها في النهار،ويقص عليه في المساء كيف كان أجداده جميعا بالفسطاط يمارسونها .

لذلك فقد أمضى عم صالح سنوات حياته كلها يصنع الأواني والقلل

والأزيار والقدر ،حتى صارت يداه تشبهان في لونهما الطين الذي يصنع منه الفخار، وتماثلان في خشونتهما ذلك الطين بعد أن يحترق داخل الفواخير.

كانت الفسطاط وفواخيرها هي حياة عم صالح كلها ،والآن كان عليه أن يتركها لكي يقام مكانها مشروع إسكاني حديث من المساكن السابقة التجهيز.

لم يكن عم صالح يعلم أن تلك المنطقة شهدت صناعة الفخار منذ أقدم العصور، وأن الطريقة التي يستخدمها في صناعة الفخار مصورة على جدران مقبرة أحد الأمراء في سقارة، فهي نفس الطريقة التي كان يستخدمها أجداده الفراعنة أول من عرف صناعة الفخار.

لم يكن عم صالح يعلم أن القطع الأثرية القديمة المبعثرة في الفسطاط، هي بقايا ازدهار لم يسبق له مثيل في صناعة الفخار خلال العصر الإسلامي، الذي تبوأت فيه مصر مكان الصدارة في إنتاج الفخار، فغمرت العالم الإسلامي بأنواع الخزف الفاخر والخلاب بما حوى من زخارف ونقوش فنية دقيقة وأشكال هندسية رائعة ومتنوعة.

لم يكن عم صالح يعلم أن تلك الصناعة البدائية التي أعطاها حياته كما أعطاها جدوده حياتهم من قبله، هي أقدم الصناعات اتصالاً بتاريخ الحضارة الإنسانية ،وأنها لذلك تعتبر المقياس الحقيقي الذي يتخذه المؤرخون لقياس مدى تقدم أي من الحضارات الإنسانية القديمة.

لكن عم صالح بالرغم من ذلك كان يملؤه شعور فطري بالأهمية التاريخية لهذا المكان، الذي ولد به وعاش طوال حياته فيه، كما كان يشعر بأنه هو

نفسه امتداد لتقليد عريق وعظيم، وبأن كل من عاش قبله على هذه البقعة من الأرض كان يفعل نفس ما يفعله هو بهذا الطين الطيب الذي يتحول بين يديه إلى آيات من الجمال منذ كان عجينة لينة يضعها على العجلة التي يديرها بقدميه الحافيتين، فيتحول من كتلة مكورة إلى إناء للماء أو وعاء للأزهار، ثم يدخل الفاخورة ويحكم عليه الإغلاق ليخرج في اليوم التالي فخارًا بديعًا يتحدى الأزمان.

لذلك لم يستطع عم صالح أن يتقبل فكرة هجرة الفسطاط والعيش في مكان آخر بعيدًا عن هذه الفواخير، التي كانت كل فاخورة منها تملؤه شعورًا بالفخر والفخار، فقد كانت كل فاخورة بالنسبة لعم صالح أثرًا تاريخيًا ورثه عن أجداده الذين ورثوه عمن قبلهم، لكنه لم يكن أثرًا ميتًا، وإنما أثر ينبض بالحياة؛ لأنه مازال ينتج نفس أعمال الخزف التي كان ينتجها منذ أقدم العصور.

وقد حاول عم صالح مرارًا أن يقنع خفير المنطقة الذي أبلغه رسميا بأمر الإخلاء أن من الخطأ هدم الفواخير ووقف صناعة الفخار، لكن الخفير كان يطلب منه سيجارة ويستمع إليه حتى ينتهي من السيجارة فيقذف بها على الأرض ويضغط عليها بنعل حذائه الميري فتغوص في ذلك الطين البني اللون وينطفئ وميضها، ثم يمضي ويترك عم صالح وحيدًا مع قلقه على مصير الفواخير، ذلك القلق الذي لم يعد يترك له لحظة راحة واحدة.

لكن عم صالح لم يكن ليقبل فكرة هدم الفواخير بهذه البساطة، لذلك قرر أن يذهب ولأول مرة في حياته إلى قسم الشرطة ليشرح لهم الأهمية الأثرية لفواخير الفسطاط، وقد كان يسمع كثيرًا عن اهتمام الحكومة

بالسياحة فقرر أن يحكي لهم كيف أن جموع السياح كثيرًا ما كانت تتوافد على هذه المنطقة التي أخرجت مئات الملايين من قطع الخزف الفنية على مدى العصور، وكان ينوي أن يقص على المأمور نفسه قصة أستاذ الخزف الفرنسي الذي أمضى مع عم صالح ثلاثة أيام كاملة في الفسطاط ، يسجل مختلف خطوات عمله في مفكرة صغيرة بينما كان أحد المصورين يلتقط له ولأعمال الفخار التي يصنعها بيديه مئات الصور.

لكن عم صالح لم ينجح فيما كان يعتزم أن يفعله، كان الضباط بقسم الشرطة دائمًا مشغولين بأشياء أخرى، يبدو أنها أكثر أهمية من مشكلة عم صالح، مثل عمل محضر لأحد الأزواج لأنه اعتدى على زوجته بالضرب أمام الجيران ، الذين حضروا للقسم للشهادة، أو تحرير محضر مخالفة لبائع متجول كان يفترش أحد الأرصفة ليبيع ثمار الحنضل المر أو إيداع حرامي - قُبِضَ عليه في الأوتوبيس- في التخشيبة.

وبعد أن تكرر ذلك المرة وراء الأخرى قرر عم صالح في النهاية أن يذهب إلى المحافظ. . حاكم المدينة، ولأن الحاكم لابد أن يهتم بأمور رعيته فقد قرر عم صالح أن يعرّف المحافظ أن هناك 250 عائلة تعيش الآن في منطقة الفسطاط، وتعمل بالفواخير وأن إزالة المنطقة ستشردهم، وأن بعضهم لن يستطيع أن يعمل عملاً آخر.

كان سيقول للمحافظ إنه هو شخصيًا لا يستطيع أن يترك هذه المنطقة التي ولد بها وقضى بها كل حياته صبيًا يتعلم الصنعة من أبيه، ثم شابًا يعول عائلته بعد وفاة والده، ثم أبًا يعلم ولديْه حسين وعبدالحميد نفس الصنعة ليخلفاه بعد وفاته فخارين عظيمين كما كان أجدادهما جميعًا.

كان سيقول للمحافظ إنه لم يترك منطقة الفسطاط في حياته إلّا مرات تعد على أصابع اليدين، وكان ذلك لزيارة ضريح السيدة زينب أو الحسين أو بعض الأولياء الصالحين، وإنه لا يستطيع العيش خارج ذلك البيت الطيني الذي يسكنه والذي صنعه بنفسه كما يصنع الأواني الفخارية.

كان سيقول للمحافظ باختصار إنه لن يقبل أن يترك الفسطاط لأنه لا يعرف غيرها، وأنه كلما نزل إلى القاهرة خشى أن يضل الطريق.

ولأن عم صالح كان صادقاً في كل ما كان يعتزم أن يقوله للمحافظ بما في ذلك أنه في القاهرة يضل الطريق فإنه ضل الطريق ولم يصل إلى المحافظ، فهو لم يكن يعرف عنوانه وعندما سأل عنه لم يستطع أن يستدل عليه.

وعاد عم صالح إلى الفسطاط مهمومًا لا يعرف ماذا يفعل، كان ينظر للفواخير من حوله فيشعر بالارتياح.. كان ينظر للتراب الأحمر تحت قدميه ويتأمل نعومته الفريدة ويقول لنفسه:

لو جاء هؤلاء الذين أصدروا أمر الإخلاء إلى هنا لغيروا رأيهم على الفور؛ لأنهم سيكتشفون أن الطبيعة قد خلقت هذا المكان خصيصًا لصناعة الفخار، فالتراب هنا نقي وناعم، وقد فجرت الطبيعة بئرًا في هذا المكان ليكون وسيلة الفخارين في خلط التراب بالماء حتى يتحول إلى تلك العجينة الحمراء النادرة والتي إليها يرجع السبب في أن فخار الفسطاط يختلف عن أي فخار آخر في العالم.

لو جاء أحد هؤلاء إلى هنا لكان عم صالح قد سأله إلى أين يعتزمون نقل صناعة الفخار من هنا؟ هذه الصناعة العظيمة التي لم تتوقف منذ فتح عمرو بن العاص مصر، بل ومنذ أيام الفراعنة القدماء؟ كان سيسألهم وعندئذ كانوا سيحارون.

وكما لم يستطع عم صالح الوصول إلى المسئولين، فإن أحدًا منهم لم يأت إلى الفسطاط، ومع مرور الوقت بدأ عم صالح يهدأ قليلاً وبدأ ينعم بالنوم لفترات أطول مما كان يفعل في بداية إبلاغه بقرار الإخلاء، فقد مضت الأيام، ثم الشهور، لكن الإخلاء لم يتم، وبدا وكأن المسألة كلها كانت حلمًا مزعجًا أو خبرًا كاذبًا أو مشروعًا حكوميًا من تلك المشاريع التي تقتلها البيروقراطية والروتين فلاترى النور.

وعاد عم صالح إلى هدوئه القديم، وبدأ يواصل عمله في الفواخير بهمة ونشاط، كان يرى الطمي في كل صباح بلونه الأحمر القاني أجمل مما كان من قبل، وكان يرى مئات الأواني الفخارية، وهي تخرج من الفواخير بعد أن سوتها حرارة النار فأخذت تتوهج وتصيح بأنها حية تعيش.

وفي يوم مشرق جميل بينما كانت منطقة الفسطاط تنعم بهدوئها المعهود، ثارت فجأة الأتربة أمام عيني عم صالح الذي ترك قطعة الطين التي كان يشكلها على عجلته وخرج ليرى سبب ثورة الأرض وهياجها.

وهناك وسط الأتربة الحمراء رأي عم صالح قافلة الخبراء الأجانب والمهندسين مسئولي الشركة الأجنبية، الذين جاءوا يعاينون الموقع الذي ستقيم عليه الشركة مشروعها.

وانقبض صدر عم صالح في البداية، لكنه عاد يقول: ربما يكون وجودهم هنا خير وسيلة لإطلاعهم على الخطأ الفاحش الذي ينطوي عليه قرار إزالة هذه المنطقة من الوجود، فهؤلاء القادمون هم بلا شك الذين بيدهم الحل والربط وهاهم قد جاءوا إلى عنده وهذا ما كان يتمناه.

وبدأ عقل عم صالح يستعيد الحجج التي كان قد نسى بعضها، بعد أن

تصور أن المشروع قد ألغى ، فتذكر بعضها ولم يتذكر البعض الآخر . لكنه علي أي حال سيقول لهم إن تلك منطقة تحمل في جوفها الكثير من بقايا التاريخ التي كان يجدها بنفسه كلما حفر في الأرض . كان عم صالح يعلم أن الأجانب يقدسون الآثار، أو على الأقل الأجانب الذين كانوا يأتونه بالفسطاط . ولذلك فهم لن يقبلوا فكرة أن تدق فيها الأساسات أو أن تمتد تحتها مواسير المجاري .

وكان يعلم أيضا أن السائحين الأجانب كانوا يكنون له احتراما خاصا ، أو على الأقل الذين كانوا يأتون للفسطاط ، فكم من مرة طلب منه سائح أجنبي أن يمكث مكانه حتي يلتقط له الصور ، وكم من مرة كانت السائحات تصحن «رامسيس ! رامسيس» كلما شاهدنه وشاهدن الشبه بينه وبين مومياء رمسيس الثاني الراقدة بالمتحف . . نفس اللون البني القديم الذي يشبه لون الطين الجاف ، ونفس الأعين الغائرة ، ونفس الملمس الذي يشبه لحاء الأشجار الواعرة في القدم .

جرى عم صالح إلى النقطة التي توقف عندها موكب السيارات ، والتي تحولت على الفور إلى بقعة من الألوان الزاهية اخترقت لون الفسطاط البني الممتد . . كانت السيارات ألوانها زرقاء وصفراء ، نسي عم صالح شيخوخته وأخذ يقفز كشاب في العشرين حتى وصل بسرعة إلى الموكب ، وتقدم على الفور يحيي الضيوف الأجانب الذين نزلوا من السيارات .

لم يكن عم صالح يعرف لغتهم لكن جميع السائحين الذين كانوا يتوافدون على الفسطاط كانوا يفهمون عم صالح كما كان يفهمهم .

وعلى الفور تقدم إلى عم صالح أحد الموظفين المصريين العاملين

بالشركة، وكان يرتدي جاكت كاروهات كالتي يرتديها الأمريكان، وقال له أن يفسح الطريق للخواجات.

لكن عم صالح لم يلتفت إليه، بل تقدم مباشرة إلى أحد الخبراء الذي شعر بأهميته من مجموع المحيطين به منذ نزل من سيارته الفاخرة التي لاحظ عم صالح أن بها تليفونًا بالداخل.

وكان عم صالح يحمل معه شقفة فخار قديمة كان قد وجدها في إحدى حفرياته في التراب، كانت عبارة عن مصفاة قلة قديمة نقشت عليها زخارف كثيرًا ما سحرت السياح الأجانب، وتشجع عم صالح وقدم قطعة الفخار القديمة للرجل الأجنبي لكن لفرط دهشته أزاح الأجنبي يد عم صالح التي كانت في لون الطمي، وكأنه يبعد عنه الطاعون، كان القرف باديًا على وجه الرجل الأجنبي الذي لم يفهم ما هذه القطعة المكسورة من الفخار التي لابد أنها تحوي الكثير من الجراثيم.

وعلى الفور هجم الموظف المصري الذي يرتدي الجاكت الكاروهات على عم صالح وقال له:

-جرى إيه يا راجل أنت؟ أنت عايز تودينا في داهية؟ إيه اللي أنت بتهببه ده؟ إيه القرف اللي أنت بتديهوله ده؟ حد قالك هو عايز البلاوي بتاعتك دي؟

وأخذ الموظف قطعة الفخار ذات الزخارف الإسلامية القديمة وقذف بها بعيدًا، وكأنه لا يريد لعيني الرجل الأجنبي أن تقعا عليها ثانية.

ولم يعرف عم صالح ماذا يفعل فحاول أن يقول لابن بلده المصري إن تلك هدية أثرية يريد إهداءها للبيه الخواجة ترحيبًا بقدومه إلى هذه المنطقة،

لكن الموظف قاطعه قائلاً :

أنت عارف مين ده يا راجل يا مغفل أنت؟ ده مدير الشركة نفسه جاي من بلاد بره علشان يعاين المنطقة بس وراجع تاني بكرة الصبح بالطيارة .

فقال له عم صالح إنه كان يريد أن يقابل هذا المدير منذ شهور فليساعده في ذلك ، وهو لن يأخذ من وقته كثيرًا فرد عليه الموظف في غضب :

تقابل مين يا راجل يا مخبول أنت؟ ده الوزير كان عايز يقابله والراجل لسه مش قادر يحدد له ميعاد علشان وراه مصالح كتير في بلاده هناك . . الناس دول وقتهم بفلوس مش قاعدين زيكم هنا تتشمسوا .

وحاول عم صالح مرة أخرى أن يشرح له الموضوع، لكن الموظف أزاحه بقوة من أمام المدير الأجنبي قائلاً له :

أوعى كده أُمال!

لكن عم صالح لم يكن ليترك هذه الفرصة تمر دون محاولة أخرى، فها هو الخطر ماثل أمامه حقيقة مؤكدة وليس كما كان من قبل قرارًا شفهيًا لا يدري مدى صحته، وهاهي الفرصة سانحة أمامه لكي يحاول إثناء هؤلاء الناس عن عزمهم هدم المنطقة .

وعلى الفور قال عم صالح للموظف أن يدعو البيه الخواجه «ليشرب عندنا الشاي» فهذا الطلب لا يمكن أن يرفض مهما كانت الفلوس التي يساويها وقت هؤلاء الأجانب ، إن تلك هي أصول وكرم الضيافة .

ولم يحتمل الموظف أكثر من ذلك فقال لعم صالح :

إذا ما كنتش حاتمشي من هنا يا راجل أنت حانده لك البوليس! ولاحظ أحد المعاونين ما يجري فاقترب منهما سائلاً :

إيه الحكاية . . فيه إيه؟

فتقدم إليه عم صالح على الفور وشرح له الموضوع بصراحة، ولكن فجأة وكأن الرجل قد لدغته عقربة . . انفجر المعاون في عم صالح:

يانهار أسود! أنت عايز توقف المشروع؟ الحكومة ما صدقت أن الشركة قبلت تنفيذ المشروع، عايز تيجي إنت تقنع الخواجة أنه مشروع فاشل؟ ده أنت تتحاكم على كده . . أنت بتعمل ضد مصلحة البلد!

لكن عم صالح قال له على الفور:

يا سعادة البيه الفواخير دي غالية قوي . . دي أثر قديم نفتخر به، كل فاخورة من دول عمرها كتير قوي.

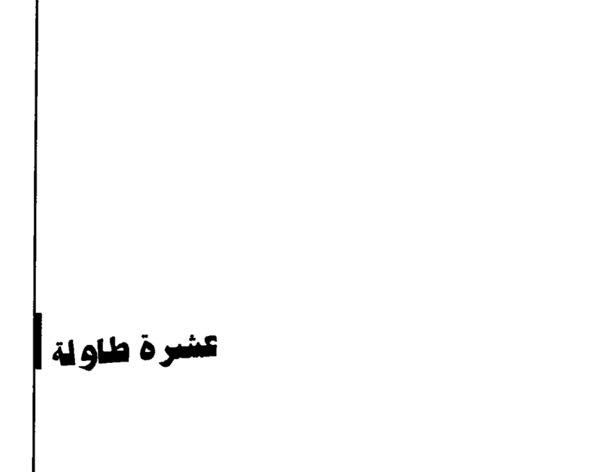
لكن المعاون دفع عم صالح بقوة في كتفه قائلاً:

ابعد ياراجل أنت من هنا . . فواخير إيه وهباب إيه!

فوقع عم صالح على الأرض.

بقي عم صالح وحده على الأرض وسط التراب ومضى الموكب بعيدًا.

تشنجت أصابعه اليابسة وهي تقبض على التربة، واتسعت فتحتا أنفه وهما تشمان رائحة الطمي، وأطبقت جفونه في نشوة لم يكن ليفهم لها سببًا إلَّا من عرف الحياة الطويلة التي عاشت في عم صالح، والتي كانت قد وصلت اليوم إلى نهايتها، فعندما عاد الموكب مرة أخرى إلى حيث وقفت السيارات كان وميض عم صالح قد انطفأ في التراب مثل سيجارة خفير المنطقة دون أن يلحظ ذلك أحد.



عشرة طاولة

في تلك الليلة لم يستطع تحمل الوحدة أكثر من ذلك. . كان بحاجة لمخالطة إنسان آخر. . أي إنسان. . امرأة. . رجل. . طفل. . . . كهل. . لا يهم. . المهم أن يشعر بوجود شخص آخر معه. . أمامه. . إلى جانبه.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساء، لكنه لم يكن ليخلد إلى النوم. . نزل سلم البيت بسرعة. . ثلاثة أدوار كان يختصر درجاتها فينزل كل درجتين معًا. . كاد ينسى الدرجة المكسورة عند الدور الأول. . ولولا يداه المرتكزتان على سور السلم لوقع على الأرض أمام باب شقة الدور الأرضي.

ما إن وطأت قدماه أسفلت الشارع خارج باب البيت، حتى أحس بالبرودة تنخر في عظامه وشعر بالماء الذي يغطي الشارع يتسلل بسرعة إلى قدميه عبر نعل حذائه الهزيل. . لكن ذلك كله لا يهم. . فالبرودة

الخارجية لا تقارن بالصقيع الموحش الذي بداخله.

لم يكن يتصور حين غادر المنصورة منذ أكثر من سبع سنوات ،أن الحياة في القاهرة يمكن أن تكون موحشة إلى هذا الحد. . في المنصورة كان يمضي وقته دائمًا وسط الأقارب والأصدقاء. . سواء أ كان بالمدرسة أم المنزل أم الطريق العام. . كان يعرف جميع أهل بلدته. . كما كانوا هم يعرفونه. . كان يعرف البقال الذي كثيرا ما كانت والدته ترسله إليه ليأتي لها بالزيت أو العدس. . والخردواتي الذي كان يحمّله السلام لوالده كلما ذهب ليشتري منه الكراريس والأقلام للمدرسة. . وأم صلاح العجوز التي كانت تبيع الجبن القريش على ناصية شارع قسم الشرطة والتي كان ابنها صلاح يجلس إلى جانبه في الفصل.

في القاهرة تعرف بالطبع على الكثيرين وصادق أيضًا الكثيرين. . لكن الصداقة في القاهرة تختلف عن الصداقة في بلدته. . فهي صداقة محدودة بالمكان والزمان. . ما إن يترك المكان حتى تذهب الصداقات التي نشأت به. . وما إن يتغير الزمان حتى تزول معه العلاقات التي قامت فيه.

بدأ جسده ينتفض قليلاً من شدة البرد فأسرع في خطاه حتى يخفي تلك الرجفة التي تملكته. . فكر أن يركب الأوتوبيس. . أي أوتوبيس. . فأكثر ما يستطيع الإنسان أن يقترب من الآخرين في القاهرة وهو في الأوتوبيس، حيث الأجساد تحيط به من كل جانب. . يشعر بها تتنفس. . تنتفخ ثم تخرج ما بها من أنفاس دافئة على وجنتيه. . على مؤخرة رقبته. . على يديه. . يشعر بأجساد تعرق من حوله فتبعث برطوبة دافئة على صدره. . على ظهره. . يشعر بها تميل يمينًا ويسارًا مع كل انحناءة للأوتوبيس، ثم

تصعد وتهبط كلما مرت عجلات العربة على أحد المطبات التي تكثر في شوارع العاصمة.

حين وصل الأوتوبيس كان خاليًا تمامًا في تلك الساعة المتأخرة من الليل إلاً من السائق فقط.. لم ير الكمساري بداخله.. كانت المقاعد الحمراء الخالية تلمع في الضوء المبهر للمصابيح الداخلية للسيارة، كأنها أفواه مفتوحة تضحك منه ومن وحدته وسط البرد القارس.

ثلاث سنوات كاملة أمضاها في مكتب التأمينات التابع لوزارة الشئون الاجتماعية ببولاق الدكرور.. وأربع سنوات قبلها قضاها طالبًا بكلية الآداب قسم الوثائق والمكتبات.. ثماني سنوات بالتمام والكمال عرف خلالها الوحدة التي لم يكن يعرفها من قبل.

كان في البداية يسافر إلى المنصورة كل شهر أو شهرين، ثم تباعدت زياراته حتى كانت تمضي ستة أشهر أو ثمانية دون أن يزور عائلته بالمنصورة.. ومع الوقت تغيرت طباعه ولم يعد يشعر بالرغبة في الزيارة كما كان يفعل من قبل.. لم يعد يفتقد أهله كما كان يفعل من قبل.. الإنسان يتغير وفق الظروف التي يعيش فيها. تمامًا كالحيوانات.. الحيوان الذي يعيش في أقفاص حديقة الحيوان في المدينة يختلف عن مثيله الذي يعيش وسط أقرانه في الطبيعة المفتوحة.. الطباع تتغير والعادات تتبدل لتحل محلها طباع وعادات الأسر حتى يصبح الحيوان - أو الإنسان - في النهاية حيوانًا آخر من فصيلة أخرى.. طبائعه مغايرة.. وتصرفاته مختلفة.

بعد تلك السنين الطويلة في القاهرة لم يعد يشعر بأنه يفتقد ذلك الدفء الذي عرفه في صباه.. كان زحام الأجساد في القاهرة يغنيه عن حرارة المشاعر الإنسانية، التي يعيش بها أهل الريف.. وكان يشعر بالوحدة فقط

عندما يبعد عن ذلك الزحام.

سيارة انحرفت فجأة في اتجاه الرصيف الذي يسير عليه فأمطرته بشلال من المياه القذرة الراكدة بالشارع، ثم توقفت بعد مسافة.. لم يستطع أن يتبين لونها بسبب الأوحال التي كانت تغطي جنباتها.. انفتح بابها وقفزت إلى جانب السائق امرأة لم يكن قد لاحظ وجودها بالشارع أثناء سيره.. أسرع بخطاه حتى اقترب من السيارة لكنها انطلقت بسرعة فغمرته بالماء مرة أخرى، حتى أصبح نصفه الأسفل في قذارة الشارع الموحل.

شعر بأصابع يديه تتجمد داخل جيب البنطلون المبلل، فزاد من سرعة خطاه.. أخذت رياح خفيفة لكنها لاسعة تصفعه على وجهه من اليمين واليسار.. ثم فجأة هطلت الأمطار..

توقف في مكانه.. فكر في العودة مرة أخرى إلى البيت.. ثم واصل السير بسرعة.. لن يتوقف.. أسرع خطاه من جديد حتى كاد يجري.

كانت سلوى هي التجربة العاطفية الوحيدة التي مر بها منذ حضر إلى القاهرة، وقد دامت العلاقة قرابة العام، ثم انتهت.. كانت سلوي تسخر منه لأنه لم يحاول أن يقبلها.. وكانت سنة ثالثة بالكلية أسوأ أعوام الدراسة بالجامعة.. أصدقاء سلوى كانوا يقولون إنه قروي ساذج.. وزملاؤه كانوا يعايرونه لأنه «خام» مازال يعتقد أن ملامسة أي فتاة حرام.. كان مازال يعتقد في ذلك الوقت أن الجنس ليس كل شيء، وأن المشاعر والعواطف والأحاسيس أهم من أي حس جسدي.

كانت علاقته بسلوى تجربة مريرة لكنه نسيها تمامًا، ولم يعد يتذكرها إلّا كلما وجد نفسه وحيدًا.. بعيدًا عن الزحام.. عن أجساد البشر.. عن هذا اللحم الحي وتلك الأنفاس.

عندما وصل إلى مقهى الحاج سلطان لم ير أحدًا من الزبائن. . كانت جميع الكراسي الخيرزان والمناضد المعدنية الصغيرة قد انتقلت من فوق الرصيف الممطر إلى الداخل.

كانت نوافذ المقهي ، مغلقة وتحول رذاذ أنفاس الزبائن على زجاجها إلى ستائر حاجبة لا تظهر لمن في الشارع إلَّا أشباحًا في الداخل تروح وتجيء من خلف النوافذ.

فتح الباب ودخل بسرعة فأحس على الفور بأنفاس الحاضرين تكسو وجهه البارد. . زالت لسعة البرد التي أحسها على وجهه في الخارج وكأن كفين دافئتين قد أحاطتا بوجنتيه.

وقف عند الباب المغلق خلفه دون حراك ينظر حوله ، ويداه مازالتا في جيبي بنطلونه المبلل. . على كل منضدة جلس رجلان وجهًا لوجه يلعبان الطاولة. . بعض المناضد كان يحيط بها أفراد آخرون يتابعون اللعب. . أو يدخنون الشيشة التي عبأ دخانها جو المقهى.

أوراق الزرع الذي كان قد تم إدخاله من فوق الرصيف ، كانت قد اغتسلت بماء المطر فزال عنها التراب، وصار لونها أخضر صافيًا. . لكن أزهارها كانت قد فقدت ينعانها وتهدلت أوراقها وسط دخان المقهى المغلق. . فقط عود الصبار ظل منتصبًا بأشواكه الحادة في الإصيص المستدير.

في ركن ناء من المقهى لمح شابًا يجلس بمفرده، وقد وضع أمامه علي المنضدة طاولة مفتوحة. . كان قشاطها يبرق من بعيد وسط غيوم الدخان.

تقدم بلا تردد وجلس على المقعد الشاغر أمام الشاب. . لم يتبادلا التحية ولم يتكلما. . مد يده بشكل آلي فالتقط الزهر وأخذ يلعب.

في البداية كانت حركة يديه عصبية بعض الشيء. . لم يكن ذلك ارتباكًا

كما تصور زميله الجالس أمامه . . وإنما كان بقايا الرجفة التي صاحبته في الطريق . . لكن بالتدريج أخذ حماسه للعبة ينظم حركاته .

شعر بالشاب الجالس أمامه يبادله الحماس، وسرعان ما بدأ بعض الحاضرين يلاحظون حرارة اللعب في هذا الركن من المقهى، فترك بعضهم اللاعبين الآخرين وجاءوا يتفرجون عليهما .

تحولت الطاولة إلى بؤرة اهتمامه الوحيدة في هذه الجلسة . . بل في الحياة ذاتها . . لم يعد هناك في حياته سوى ذلك القشاط الأبيض الذي كان قشاطه الأسود يضربه الواحد تلو الآخر فيخرجه من الطاولة . . كان يلعب لعبته بحماس آلي لا شعور فيه ولا إحساس .

بعد قليل كان قد ذهب عنه البرد ونسي وحشة الحياة في المدينة الكبيرة بهذا التفاعل المتبادل بينه وبين زميله باللعب : دور له ودور لزميله . . دور له ودور لزميله . . حتى حانت لحظة النهاية .

كان الدور عليه لكن الزهر وقع على الأرض . . لا، لن يضيع منه الدور . . يجب أن يحرز هدفه . . يجب أن يكسب . . لم ينحن ليلتقط الزهر من فوق الأرض . . ظل ينظر إلى عيني الشاب الجالس أمامه بلا كلام . . بعد لحظات انحنى الشاب والتقط الزهر، ثم قدمه له في خنوع .

قبض على الزهر بيده في ثقة لاحظها المتفرجون، بينما أخذ الشاب ينظر إليه في استسلام . . ظل يرج الزهر في سرعة متزايدة، ثم قذف به بقوة على الطاولة أمام زميله بينما علت صيحة أحد المحيطين بهما : «دوش!» . . وانتهت العشرة .

قام في هدوء وغادر المقهى صامتًا كما دخل . . في طريق العودة كان المطر قد توقف وزال عنه الشعور بالوحدة .

آلو!

آلو . . آلو . . من؟ عادل؟غير معقول . . أهلا يا عادل . . أين أنت؟ أي دنيا؟ لابد أنها غير الدنيا التي أعرفها، لقد تصورت أنك سافرت، أو ربما هاجرت إلى استراليا، ها ها ها . . فعلا الدنيا تلاهي .

لقد انشغلت أنا أيضًا في أشياء عديدة . . طبعًا سعيدة . . أرجو أن تكون أنت أيضًا سعيدًا بحياتك الجديدة .

لا أكاد أصدق أنني أسمع صوتك ثانية . . أشعر أنك تتحدث من عالم آخر، عالم نسيته تمامًا منذ أن . . منذ حوالي سنة . لا ليس أحد عشر شهرا، وإنما سنة وسبعة عشرون يوما بالضبط . على أي حال كل ذلك قد مضى الآن . . لقد نسيته تمامًا . . يعني . . كان يسبب لي بعض الصداع في البداية - صداع مزمن - ولكني تغلبت عليه بعد ذلك وعدت إلى الحياة مرة أخرى . . لقد تغيرت حياتي تمامًا بعد أن . . منذ أن انفصلنا .

آلو . . نعم يا عادل . . نعم أنا معك . . كيف حالك أنت؟ . . صحيح؟

أنا سعيدة لك من كل قلبي. . ألف مبروك. . لقد كان حلمك دائمًا أن تعمل بهذه الشركة. . لابد أنك تسافر كثيرًا للخارج. . آه تعمل بمقر الشركة هنا. . لم تسافر على الإطلاق؟ والله ياعادل لقد تصورت طوال الوقت أنك سافرت. . لم أتخيل أبدًا أنك في نفس البلد. . أو حتى نفس الدنيا. . لا. . لاأقصد. . أنت تعرف معزتك عندي.

نعم لقد مضى وقت طويل. . آه يا عادل إنك تذكرني بما كنت قد نسيته. . لقد قلت لك يومها إن الحياة ستمضي رغم كل شيء. . طبعا ذاكرتي قوية. . قلت لك إنني لن أموت فإن الحياة بأكملها مازالت أمامي. . لا. . أنت لم تقل شيئًا. . ولكن لم هذا الحديث الآن؟ إنني سعيدة أنك اتصلت فنحن على أي حال صديقان. . تريد أن تدعوني؟(يا إلهي أهو عائد إليَّ؟). . لا لم أقل شيئًا. . كنت أحدث نفسي. . ماذا كنت تقول؟ لي دعوة عندك؟. . دعوةغداء أم عشاء(يارب رفقًا بي!). . نعم مازلت أفضل العشاء علي الغداء. . فالعشاء لا يكون إلاً في الليل. . والليل يسدل ستارًا على كل متاعب الحياة ولا يعود الإنسان يرى إلّا رفيقه الذي يجلس أمامه على مائدة العشاء، تماما كما في«المسرح الأسود» الذي يختفي من فوقه جميع الممثلين ولا يرى الجمهور إلّا ما يحملون من أدوات بيضاء، كم هو جميل ألّا يرى الإنسان إلّا ما يريده من ألوان!. . لم أتغير؟. . ربما في آرائي فقط لكن حياتي تغيرت تمامًا. . قل لي يا عادل؟ هل مازلت تلبس أول حرف من اسمي حول رقبتك؟ لا والله. . إنه مجرد سؤال عابر ليس وراءه سوى فضول نسائي بريء. . على كل حال هذا شيء انتهى ومضى كل منا إلى حاله.

آلو . . نعم أسمعك . . تريد أن تدعوني . . أين يا عادل؟(لا أكاد أصدق ما يحدث لي) . . إن السعادة عندما تكون شديدة فإنها يمكن أن تكون مميتة تماما مثل التعاسة . . لماذا أقول ذلك؟ لأنني سعيدة في حياتي الجديدة . . أنت تعلم طبعا أن الحياة لا تتوقف يا عادل وهناك شيء يجب أن تعرفه . . إنني خلال العام الماضي التقيت بشخص آخر ووجدت أنه يحبني حبًا كبيرًا وأنا سعيدة جدًا معه الآن وذلك طبعا يلزمني ببعض الأشياء . . أقصد أن مسألة دعوتك هذه . . ماذا؟ أنت مصمم؟ أين؟ لا أصدق . . يا عادل . . نفس مكاننا القديم؟ أتذكر كيف كنا نلتقي دائمًا في الهيلتون؟ حتي عندما كنا سنذهب إلى مكان آخر كنا نتقابل في الهيلتون ثم نمضي من هناك . . هل تتصور أنني لم أستطع أن أدخل الهيلتون طوال العام الماضي؟ . . أنت كما أنت يا عادل لم تتغير . . تقول أشياء كثيرة دون أن تتكلم . . (يارب لقد استجبت لدعواتي . . لقد عاد إليّ فعلا . . قلبي سينشطر . . أهذا حلم أم علم؟) .

اسمع يا عادل لماذا لا تقفل السكة، ثم تطلبني ثانية؟ ليس لديك وقت؟ آخرون تريد أن تدعوهم؟ أين؟ . . معنا؟ لكني أنا لم أقبل الدعوة بعد . . واثق أنني سأقبلها؟ . . أنت كما أنت لم تتغير . . واثق من نفسك دائمًا تعرف نقاط قوتك . . وتعرف نقاط ضعفي . . لا، لا تتحدث . . دعني أنا أتكلم يا عادل . . يجب أن أعترف لك بشيء . . هذا الشخص الذي حدثتك عنه الآن لا وجود له . . لقد اختلقت هذه القصة لأحفظ كرامتي أمامك . . لا تقاطعني ياحبيبي . . اسمع ما سأقوله لك، ثم اقذف به إلى البحر بعد ذلك . . يجب أن أعترف لك بما تجيش به نفسي . . أريدك أن تسمع يا عادل فهذا

حقك . . إنني لم أر أحدًا منذ تركتني . . لم يدخل أحد حياتي . . لم أسمح لأحد أن يحتل مكانك بداخلي . . كنت أعرف أنك ستعود . . وكنت أريدك أن تجد مكانك في قلبي كما تركته دون أن يكون قد دنسه حب آخر . . لا . . أنا لا أتسرع . . كنت أريدك أن تعرف ذلك قبل كل شيء . . نعم سأسمح . . على أي حال لقد قلت ما عندي .

آلو؟ . . ماذا؟ . . نعم أسمعك، تقول إنني أول شخص تدعوه، وكم من الأشخاص ستدعو بعدي؟ هاها خمسمائة مرة واحدة؟ سيكلفونك كثيرًا إذا كنت ستدعوهم جميعًا في الهيلتون . . ماذا تقول؟ فرح؟ . . فرح من؟ . . أنت؟ . . تدعوني لفرحك؟ . . فرحك أنت؟ . . فرحك أنت؟ . . نعم . . أنا معك . . ابنة مدير الشركة؟ آلو . . آلو؟ لا أسمع شيئًا . . نعم . . أنا . . أنا . . لا . . أبدًا . . مبروك . . نعم نحن صديقان . . نعم . . لا، لا شيء . . لا . . لا أسمع . . لقد عاودني ذلك الصداع . . الوداع .

باب التوفيق

سوناتا شعبية في ثلاث حركات

الحركة الأولى.. بطيء حزين

لم تكن هذه هي الحياة التي كان يتطلع إليها محسن عبدالفتاح، آماله وهو شاب لم يتحقق منها شيء، كان يحلم بالنجاح والحب والمال لكنه لم يوفق في أي منها، فها هو يعمل مدرسا لمادة الحساب التي كان يكرهها طوال حياته، وها هو العمر قد قارب على الأربعين دون أن يجد الحب الذي كان يتمناه، بل وجده لكنه لم يحصل عليه لأن عزة، زميلته بالمدرسة لا تبادله هذا الحب، وها هو الراتب لا يكاد يكفي ميزانية الأكل وحده، وهو لا يحب الدروس الخصوصية؛ لأنها تأخذ الكثير من وقته الذي كان يفضل أن يقضيه في القراءة بعيدًا عن مادة الحساب الصماء هذه.

تذكر محسن ذلك وهو في طريقه إلى المدرسة صباح أحد أيام الشتاء القارسة فاشتد عليه الإحساس ببرودة الجو. كان يسكن في حي الحسين وكانت المدرسة في ميدان باب الشعرية، ولكي يكون في الفصل في

السابعة صباحًا كان عليه أن يترك غرفته فوق سطح المنزل رقم 14 بحارة الدرب الأصفر بالجمالية في السادسة والنصف ويمشي على قدميه حتى الميدان.

كانت الدنيا مازالت ظلامًا في ذلك الصباح، والشتاء يعكس كالمرآة الفاضحة شتاء حياته التي كانت دائمًا باردة ملبدة بالغيوم كصباح ذلك اليوم الذي لن يعود إليه ربيع ولا صيف.

مر على بيت السحيمي القديم الواقع في نفس الحارة التي يقطن بها، فاسترعى انتباهه جمال معماره المملوكي الذي كان دائمًا يثير في نفسه أحاسيس الجمال القديمة التي كان يشعر بها وهو صبي، لكن حياته كانت قد انحصرت الآن في حصص الحساب من السابعة صباحًا حتى الثالثة بعد الظهر بتلك المدرسة الإعدادية الباعثة على السأم بحيطانها الأسمنتية التي لم تعرف لون الطلاء منذ أنشئت.

خرج من الحارة إلى شارع المعز لدين الله الفاطمي، كانت السماء قد أمطرت في الليل، ولم يبد لهذا الصباح شمس تجفف المياه التي غمرت الشارع فحولت ترابه الخفيف ذا اللون الطحيني إلى عجين داكن في لون القطران.

اليوم شتاء قارس لكنه على الأقل يوم القبض، أربعة وسبعون جنيهًا وثلاثة وخمسون قرشًا سيقبضها في الفسحة بعد الحصة الثالثة. .نعم سيقبض عليها بكلتا يديه فهي كل ما يملك من أصل خمسة وثمانين جنيها هي مجموع راتبه.

بالإضافة لبعض البدلات الأخرى التي لا يعرف تفصيلاتها فهي ملاليم

زهيدة على أي حال . . كل ما كان يعرفه هو أنه يتم استقطاع أكثر من عشرة جنيهات من راتبه كل شهر كانت يمكن أن تسد بعض حاجاته الملحة .

استوقفه محل عبده صابر الذي كان مفتوحًا على غير العادة في تلك الساعة المبكرة، كان عم عبده يتعامل في القطع الخشبية القديمة التي كان يبيعها لهواة جمع التحف الإسلامية .

كم من ساعات أمضاها محسن وهو صغير في محل عم عبده العجوز ينظر إلي تلك الأخشاب القديمة المطعمة بالصدف أحيانًا أو المزخرفة بالأرابسك أحيانًا أخرى، وكم كان يسمع من عم عبده قصة كل قطعة منها : هذه من جامع الأزهر القديم قبل تجديده، وتلك قطعة من نافذة الوالدة باشا بقصر الدوبارة وهذه قاعدة صنعت خصيصًا لشيشة أفندينا .

في مرة وجد سيدة أنيقة تشتري من عم عبده بابًا قديمًا ذا طراز عربي أصيل، وسمعها تطلب من عم عبده أن يثبت في أركانه أربع أرجل ويطليها بنفس اللون البني الداكن، وكره محسن تلك السيدة الأنيقة التي كانت ستستخدم هذه القطعة الإسلامية القديمة ليضع عليها ضيوفها أكوابهم ومنافض سجائرهم .

لكن عم عبده هذا كان رجلاً غريب الأطوار ، وبعض سكان الحي كانوا يقولون إنه مجنون من كثرة معاشرته الآثار القديمة، وكان محسن يخاف منه عندما كان طفلاً ، ويخشي أن يمر من أمام محله القديم، وقد ضحك عم عبده كثيرًا حين اعترف له محسن بذلك منذ سنوات، وذكره بحديثه له وهو طفل حين قال له إن كل قطعة عنده لها روح فهي ليست كالأخشاب الحديثة التي تصنع منها كراسي المقاهي أو دكك المدارس، وإنما بها عبق التاريخ .

نظر محسن داخل المحل فوجد عبده صابر واقفًا وسط أخشابه، وقد تحول وجهه إلى لون ترابي كالح وتلاعبت في عينيه نظرة قلقة لم يعتدها . .

- ماذا بك ياعم عبده؟

- زوجتي!

- خير ياعم عبده مالها؟

- فأجابه بكلمتين لا ثالثة لهما :

- تعيش أنت .

ثم تحولت نظرة القلق في عيني عم عبده إلى سيل من الدموع ، وكأن هاتين الكلمتين كانتا تسدان قمقم الأحزان الذي انفتح فجأة بعد سنوات طوال وانتقل الحزن على الفور إلى قلب محسن :

- لا حول ولا قوة إلا بالله! امتى ياعم عبده؟

- ليلة أمس . .

ثم أخذ العجوز يجفف دموعه بكم جلبابه القديم وهو يقول :

- لست أعرف ماذا أفعل . . إنهم يغسلونها الآن بالبيت ، والدفن سيكون بعد صلاة الظهر .

وأدرك محسن ماذا جاء بعم عبده إلى محله في هذه الساعة المبكرة ، لكنه أدرك أيضًا أن عم عبده لابد سينتظر كثيرًا حتى يأتيه زبون يفك أزمته ، فزبائنه مثل تلك السيدة الأنيقة التي لا يزال محسن يتذكرها لايأتون إلى المنطقة إلاَّ في الظهر ، فهم ليسوا مدرسين مثله يصحون من نومهم قبل ضوء النهار .

تذكر محسن الـ 74 جنيهًا التي كانت سيقبضها بعد قليل ، لكنه كان مدينًا

لعليوة البقال بأربعة جنيهات فقال لعم عبده :

ـ سأقبض راتبي اليوم ياعم عبده فانتظرني وسأعود إليك بعد قليل بسبعين جنيهًا إلى أن يفرجها ربنا . .

وانطلق محسن بأقصى ما يستطيع وسط طين الشارع ، بينما أخذ عم عبده ينادي عليه ويرجوه ألّا يفعل ، بعد حوالي الساعة كان محسن يقبل على محل عبده صابر لاهثًا ويدس السبعين جنيها في يده ويرجوه أن يغلق المحل ويعود لبيته .

ومرت ثلاثة أيام انتهت فيها جميع مراسم الجنازة والدفن والعزاء ، لكن أحدًا من زبائن عم عبده لم يدخل عليه المحل ليشتري شيئًا .

كان محسن قد دفع الجنيهات الأربعة لعليوة البقال فعاد يشتري منه «شكك» مرة أخرى بعد أن فرغ ما لديه في البيت من جبن وزيتون وخبز ، ولم يشأ أن يدخل محل عم عبده خشية أن يتصور العجوز وسط حزنه على زوجته أنه يذكره برد السبعين جنيهًا .

لكن في اليوم الرابع ، بينما كان محسن عائدًا من المدرسة في حوالي الرابعة بعد الظهر ، نادي عليه عم عبده وقال :

ـ لا مؤاخذة يا بني! العين بصيرة واليد قصيرة .

فقال له محسن على الفور :

ـ لا داعي لهذا الكلام ياعم عبده ، مستورة والحمد لله .

فقال له العجوز :

ـ هذا هو حال شغلتنا ، قد نبيع بألف جنيه في يوم واحد ، وقد تمر أسابيع لا نبيع فيها شيئًا .

ـ أعرف ذلك ياعم عبده، وأنا لم أطلب منك شيئًا.

لكن عم عبده وضع يده اليابسة على كتف محسن وقال له:

ـ تعالي معي يا محسن، ثم قاده إلى داخل المحل.

كان محل عبده صابر يشبه سردابًا كبيرًا لا أول له ولا آخر فما إن تصل إلى حائط تتصور أنه نهاية المحل إلَّا وتجد ممرًا آخر يقودك يمينًا أو شمالاً إلى حجرة تالية.

أخذ عبده صابر محسنَ من يده ومر به من حجرة إلى أخرى حتى وصل إلى نهاية المحل، وهناك أشار العجوز بإصبعه المرتعشة إلى الحائط الأخير وقال في صوت جهوري لم يسمعه محسن منه من قبل وكأنه يعلن اكتشاف كنز:

ـ انظر!

ونظر محسن مليًا إلى الحائط وسط الضوء الخافت في آخر المحل إلى أن بدأ شيئًا فشيئًا يتبين ما أمامه ثم فغرفاه:

ـ ماهذا ياعم عبده؟

ـ ألا ترى؟

واتسعت عينا محسن وهو ينظر إلى لوح خشبي ضخم يرتكن إلى الحائط الأخير لمحل عم عبده، لم يكن محسن قد رأى في حياته شيئًا بهذا الجمال، ولا زخارف بهذه الدقة ولا نقوشا بهذه الروعة، حتى خيّل إليه أنه ينظر إلى شيء مسحور!

وتذكر محسن قول عم عبده له وهو صغير:

إن كل قطعة عنده لها روح، فأحس على الفور بروح هذه القطعة الفريدة

تنبض أمامه بتاريخ الأجداد فتملأ المكان عظمة ومجدًا وجلالاً.

ولاحظ عبده صابر أن محسن كاد يغيب عن الوعي وهو يحملق أمامه كالمخبول، فقال له علي الفور:

- إن ما تنظر إليه الآن هو «باب التوفيق»، إنه أقدم قطعة عندي في المحل، وانتظر عم عبده إجابة من محسن، لكنه لم ينطق بكلمة؛ ظلت عيناه تحملقان في هذه القطعة الفنية النادرة في صمت.

فقال له العجوز:

- هو أحد أبواب القاهرة القديمة.. انظر إلى النقوش إنها فاطمية، ويقال إن الذي بناه هو بدر الجمال، لكني أعرف أن الذي بناه هو جوهر الصقلي باني القاهرة نفسها.. ثم همس لمحسن وكأن معهما بالمحل من لا يريدهم أن يسمعوه:

- هذا هو البوابة الشرقية لقاهرة المعز، لقد جاء اكتشافه بمحض المصادفة أثناء بعض أعمال البناء التي كانت تجري بمنطقة الدراسة عام 1957.

وأفاق محسن قليلاً ليقول لعم عبده

- لكني لم أسمع عن «باب التوفيق» هذا من قبل.

فرد عليه عم عبده:

- نعم الناس تعرف باب النصر وباب زويلة وباب الفتوح، لكن ليسوا كثيرين الذين يعرفون «باب التوفيق»، ليسوا كثيرين الذين يعرفون تاريخ القاهرة كما نعرفها نحن الذين نعيش في أحيائها القديمة.

سأل محسن:

- وماذا بعد اكتشافه عام 1957؟

قال العجوز :

إن ما تم اكتشافه هو مجرد بوابة لها قبو من الحجر وعلى قمتها لوح حفر عليه بالخط الكوفي اسم «باب التوفيق»، أما الباب نفسه بحلقه الخارجي والذي كانت تمر منه الجمال والخيول والأفيال فقد فقد إلى الأبد.

فسأل محسن :

ـ وما هذا إذن؟

فقال العجوز :

ـ إنه الباب الداخلي الذي كان يمر منه الناس، انظر هذا الحفر الدقيق كأنه صنع الأمس فقط ، رغم أن الأيدي التي صنعته قد تحولت إلى التراب منذ مئات السنين.

ورفع عم عبده بنانه في وجه محسن وهو يقول :

ـ لقد بني هذا الباب عام 480 هجرية .

ثم طرق على الباب بقبضة يده اليابسة فأطلق الباب صوتًا رنانًا ذا رخامة وجلال، فقال عم عبده :

ـ أتسمع صوته؟!

وفكر محسن أن الخشب بعد ما يقرب من ألف سنة، فإنه لابد قد جف حتى تحجر فاكتسب صوته تلك الرنة العجيبة التي لا توجد في الأخشاب الحديثة.

. . ودار عم عبده نصف دائرة حول الباب المسنود على الحائط الداخلي للمحل، ثم قال لمحسن :

ـ إن هذا هو أكثر أبواب القاهرة القديمة بركة .

لا أحد يعرف لماذا سمي «باب التوفيق» لكني أنا أقول لك السبب فأنا أعرف عن هذه الأشياء أكثر مما يعرفه من يدرسون بالكليات:

لقد سمي «باب التوفيق»؛ لأنه يجلب التوفيق لكل من يدخله. أما من يخرج منه. . .

ولم يكمل العجوز جملته، بل ضحك فازدادت تجاعيد وجهه واتسع فمه الذي سقطت الكثير من أسنانه.

قال محسن وهو لايزال مأخوذًا بجمال الباب:

- لابد أنه يساوي كثيرًا «باب التوفيق».

فذهبت ضحكة عم عبده:

- ومالي بما يساويه؟ هل سأبيعه؟

ثم قال في جدية وقد قطب حاجبيه:

- إنه تراث يا أستاذ، ولقد ورثته عن والدي الذي ورثه عن جدي، ولم يفكر أحد فينا في أي يوم أن يبيعه، انظر إليه، هل هذا يباع؟!

ثم نقل عم عبده نظرته من الباب إلى وجه محسن الذي كانت لا تزال تعلوه علامات الدهشة والانبهار وقال:

- إن الدولة تعرف هذا الباب جيِّدا.

ثم أضاف:

- لقد أخطرت هيئة الآثار بوجود هذا الباب عندي، وشكلت لجنة جاءت وفحصت الباب لمدة ثلاث ساعات ونصف الساعة ووضعت عليه بعض المحاليل التي تركت عليه بعض البقع.

انظر هنا فوق النحاس هاهي بقعة لعينة، ثم أرادت أن تقتطع من خشبه

«عينة» فرفضت . . إن هذا الباب مثل أجدادي! كيف يمكن أن تترك أحدًا يأخذ عينة من وجه جدك أو من ذراعه؟ لقد تعاركنا كثيرا وفي النهاية قالت اللجنة: إنه أثر ولا يجوز المتاجرة فيه، فقلت لها:

من قال إنني أقبل أن أتاجر به؟ وبعد خناقة أخرى تدخل فيها بعض أبناء الحي لتهدئة الجانبين أخذت عليّ اللجنة تعهدًا بأنني لن أبيعه.

وصمت عبده صابر قليلاً، فقال محسن وكأنه يحدث نفسه:

- إن «باب التوفيق» هذا هو أجمل ما رأيت في حياتي.

فابتسم عم عبده وقال له في نبرة آمرة:

- غدا الجمعة لن تذهب إلى المدرسة فاتفق مع بعض زملائك وتعالوا إليّ قبل الصلاة لتحملوا الباب إلى بيتك.

ونظر محسن إلى العجوز ولم يفهم.

- ماذا تقول ياعم عبده؟

فقال له العجوز في هدوء:

- أقول لك أن تحضر غدًا من يحمل معك الباب.

إنه ثقيل جدًا وليس أقل من أربعة رجال أشداء يستطيعون إزاحته من مكانه.

- لكنني لا أستطيع أن آخذه ياعم عبده . . ثم لماذا؟ لماذا آخذه؟ إنه ملكك أنت، هو جزء من محلك.

فاستطرد عم عبده دون أن يفقد هدوءه:

- لا لم يعد ملكي . قلت لك إنني لم أفكر في بيع هذا الباب . .

لكن الحقيقة أن المرة الوحيدة التي لم أكن سأتردد في بيعه هي منذ أيام

قليلة، لقد تمنيت بالفعل لو أنني لم أكتب ذلك التعهد للحكومة. . كنت بالفعل أريد بيعه . . في هذه اللحظة، بدلاً من أن يدخل عليّ زبون ليشتريه دخلت أنت عليَّ براتبك الذي فك عليّ ضائقتي.

لكن محسن قاطعه:

- لا ياعم عبده إن هذا الباب لك، ولا أستطيع أن أخذه أيّا كانت الأسباب، إنه إرثك أبًا عن جد.

فابتسم عبده صابر من جديد وقال:

- لا يا محسن، لقد تخليت عنه يوم وددت أن أكون قادرًا على بيعه فلم يعد لي، إنه لك أنت، فأنت الوحيد يا محسن فيمن أعرفهم الذي تستحقه لأنك تقدر قيمته. . خذه يا بني.

وبعد فشل المحاولات المستميتة التي بذلها محسن لإثناء عم عبده عن قراره ،انتقل الباب إلى منزل محسن عبدالفتاح فوق سطح العقار رقم 14 بحارة الدرب الأصفر بالجمالية.

الحركة الثانية.. معتدل حالم

ظل محسن ينظر إلى الباب طوال الليل، لم ينم في تلك الليلة فقد استحوذ عليه «باب التوفيق» بزخارفه القديمة، الغائر منها والبارز، الدقيق منها والكبير. . كانت به نجوم ودوائر ومثلثات. . على أن أجمل ما كان فيه هو ذلك الخط العربي القديم الذي لم يفلح محسن في أن يفك طلاسمه.

ومضت على محسن عبدالفتاح ساعات وهو يتأمل تفاصيل «باب التوفيق»، وخشي أن يجن من عشقه للباب كما يقال عن عم عبده إنه جُنَّ.

كان الليل قد انتصف حين قرر محسن أن ينصرف عن الباب ويأوي إلى

النوم حتى لا يفقد صوابه ، ولكن لم تمض ساعة واحدة حتى صحا محسن من نومه على صوت طرق على باب غرفته ، فلم يعرف إن كان يحلم أم إن هناك أحدًا بالباب .

طرق الباب من جديد فهب محسن من رقدته ، بعد أن تأكد من أن هناك طرقًا بالفعل .

نظر في ساعته فوجدها الواحدة بعد منتصف الليل ، فجلس في فراشه يتساءل عمن يمكن أن يكون هذا الطارق الذي جاءه في تلك الساعة المتأخرة .

لم يكن محسن متعودًا أن يزوره أحد في غرفته فوق السطح ، هل يمكن أن يكون مكروهًا قد وقع لأحد من أفراد أسرته وجاءه مرسال يبلغه بما حدث؟ لكن ماهو ذلك المكروه؟ هل حدث شيء لوالدته المريضة؟ هل توفي أحد أقاربه؟ لا ، لا يجب أن يتمادى في مثل هذا التفكير .

طرق الباب من جديد ، فترك محسن فراشه بدون تفكير ، واتجه إلى باب الغرفة حتى يقطع الشك باليقين . . أيًا كان الخبر فهو أفضل من الدوران في حلقة مفرغة من الظنون . فض محسن القفل والمزلاج اللذين كان يحكمهما كل ليلة قبل أن ينام ، وفتح الباب فلم ير أحدًا وسط الظلام الدامس . . خرج إلى السطح يبحث عن ذلك الطارق الخفي الذي جاءه في جنح الليل فلم يجد أحدًا ، تلفت حوله يمينًا ويسارًا فدخل غرفته وأغلق الباب من جديد .

ولم تمض لحظات حتى عاد يسمع الطرق من جديد . . هذه المرة لم يتوان . . انطلق لكي يلحق بهذا الطارق الغامض قبل أن يختفي مرة ثانية . . فتح الباب بسرعة وصاح .

- ادخل !

لكن أحدًا لم يدخل سوى البرد القارس الذي لفح وجهه بقسوة.. لم يتلفت هذه المرة يمينًا ولا يسارًا أغلق الباب وأحكم القفل والمزلاج وقرر ألاَّ يفتح ثانية.

لكن قبل أن يصل محسن إلى فراشه سمع طرقًا من جديد لم يتحرك.. أطرق السمع فخُيل إليه أن الطرق آت من داخل غرفته وليس من خارجها.

وجد محسن أمامه مباشرة الباب القديم الذي أهداه إليه عم عبده في الصباح..هل يمكن أن يكون الطرق قادمًا من «باب التوفيق» وليس من باب غرفته؟

وسمع الطرق مرة أخرى..نعم إنه بلا شك «باب التوفيق» نفس الرنة ذات الصوت الرخيم التي سمعها حين طرق عم عبده الباب بيده.

لم يخف ولن يندهش وكأنه شيء طبيعي أن يطرق الباب، فكل الأبواب تطرق. ما الغريب في ذلك؟ ليس بالضرورة أن يكون الباب مسحورًا لكي يطرق، وليس بالضرورة أن يكون هو قد جُن ليتصور أن «باب التوفيق» يطرق داخل غرفته على سطح العقار رقم 14 بحارة الدرب الأصفر بالجمالية.

اتجه محسن إلى الباب القديم المرتكن إلى حائط غرفته وفتحه، ثم خطا إلى داخله ونظر يمينًا ويسارًا يبحث عن الطارق فلم يجد أحدًا، فلم يندهش لذلك أيضًا فهو لم يكن يتوقع أن يكون هناك أحد خلف الباب، دار حول الباب واتجه إلى فراشه وقد ارتاح أن عرف مصدر الطرق الذي كان يسمعه، واطمأن أنه ليس هناك على باب غرفته من جاء يبلغه بمصيبة أو بحادث فادح قد وقع، فور أن وضع رأسه على الوسادة راح في سبات عميق.

عندما صحا محسن من نومه كان أول ما استقبل به يومه الجديد،

هو تلك الابتسامة العريضة التي وجدها قد ارتسمت على وجهه . قام من فراشه وفتح شباك غرفته فاستنشق هواء الصباح المنعش ،وسمع زقزقة العصافير في تلك الساعات الأولى الفاصلة ما بين الليل والنهار، ونظر في الأفق البعيد فوق أسطح المنازل القديمة المجاورة، فرأى مئذنة الأزهر الشريف شامخة في السماء تنادي بأذان الفجر، بينما أخذت الشمس تنشر أول أشعتها على الحي، وشعر محسن عبدالفتاح بأن حياته تبدأ من جديد.

اغتسل محسن بسرعة وصلى صلاة الفجر، ثم بدَّل ملابسه وشرب الشاي وخرج من غرفته ،وهو يقفز في رشاقة فوق سلالم الأدوار الثلاثة التي كان يتكون منها ذلك العقار القديم إلى أن خرج إلى الشارع.

لم يفكر محسن في هذا الصباح فيما كان يشغل باله كل صباح وهو كيف سيدبر أموره ،إلى أن يتمكن عم عبده من رد راتبه الذي سلمه له في بداية الشهر، ولم يفكر في دينه لعليوة البقال الذي أخذ يتزايد كل يوم، فقد بدت له شوارع القاهرة القديمة في هذا الصباح آية في الجمال. . لم يعجب فقط بهندسة مبانيها الإسلامية القديمة التي أخذ يمر عليها الواحدة تلو الأخرى، وهو يخرج من حارة الدرب الأصفر إلى ميدان الحسين ،ثم شارع الأزهر إلى شارع الجيش حتى باب الشعرية، وإنما عجب أيضًا لروح تلك المنطقة التي مازالت نابضة بالحياة منذ مئات السنين تحتضن مئات، بل آلاف البشر جيلاً بعد جيل.

حين وصل محسن إلى المدرسة استقبله البواب مهللاً.

ـ صباح الخير يا أستاذ محسن وصباح الفل والياسمين.

فأجابه محسن مبادلاً إياه الابتسام:

ـ صباح النور يا حاج عطية .

فمال عليه الحاج عطية يسر إليه بشيء :

ـ لا يفوتك أن تمر على عبود أفندي في الخزينة لقد صرفوا لك منحة بسبب إشرافك على نشاط الطلبة في حفل نهاية العام الماضي الذي حضره وكيل الوزارة .

وانشرح صدر محسن وهو يتلقي تلك الأخبار السعيدة من بواب المدرسة . . فتلك المنحة غير المتوقعة ستسد فراغًا كبيرًا تركه غياب الراتب هذا الشهر ، فتقيم أوده أسبوعًا آخر على الأقل ، أو حتى أياما إلى أن يفرجها ربنا ، لكنه حين وصل إلى الخزينة وجد أن المنحة أكثر من الراتب نفسه 150 جنيهاً ، خصم منها 16 جنيهًا ضرائب ودمغات وتسلم محسن ، في يده مائة وأربعة وثلاثين جنيهًا بالتمام والكمال ، وكأنه تسلم هذا الشهر راتبين وليس راتبًا واحدًا .

وفي طريق عودته للمنزل بعد انتهاء المدرسة وعند مروره على دكان الحاج عبده صابر ، خرج إليه عم عبده يسأله عن أحواله ويعتذر له مرة أخرى عن تأخره في رد السبعين جنيهًا التي استدانها منه :

ـ أنا على استعداد أن أبيع أي شيء بالمحل ، وبأي ثمن لكنني لا أجد الزبون .

وطيب محسن خاطر عم عبده ، وطلب منه ألَّا يشغل نفسه بهذا الموضوع ، فقد انفرجت الأزمة بتلك المنحة التي تلقاها اليوم ، ثم أكد له ألَّا يتردد في طلب أي شيء إذا وجد نفسه في حاجة . .

كم هي جميلة الحياة حين لا تنهشُ عقلَ المرءِ وكيانَه الحاجةُ الماديةُ !

عاد إلى غرفته فاغتسل واستبدل ملابسه ونزل مرة أخرى إلى الشارع . . اليوم يستطيع أن يدعو نفسه على العشاء بأحد المطاعم بدلاً من الجبن القديم، وبعض حبات الزيتون اليابسة التي كانت زاده الوحيد طوال الأيام الأخيرة، مع ما قد يكون لديه من كسرات الخبز الجافة .

بعد العشاء سيجلس بعض الوقت في قهوة الفيشاوي التي كان يعشقها ويشرب شايًا أو يدخن شيشة ، ويستمتع بجو المقهى القديم الذي كان يؤمه الكثير من المشاهير .

لأول مرة فعل محسن كل ما كان يريده دون أن يعترضه ضيق ذات اليد، وحين عاد في المساء إلى غرفته فوق السطح كان هانئ البال وما إن دخل الفراش حتى غلبه النوم .

ولقد وجد محسن بعد ذلك أن المدرسة ليست كريهة بالقدر الذي كان يتصوره، رغم حيطانها الأسمنتية ولونها الرمادي الكالح، فجميع الزملاء يبتسمون في وجهه حتى الأستاذ فخري مدرس اللغة الإنجليزية الذي كان دائمًا يراه عابسًا، ولا يتذكر أنه قال له في يوم «صباح الخير»، إذا به يقبل عليه وقد علت وجهه ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه جميعًا ولاحظ محسن لأول مرة أن على الجانب الأيمن سنتين ذهبيتين .

- مبروك يا أستاذ محسن المنحة . . لقد كان اختيارًا موفقًا بالفعل . . فلا أحد ينكر المجهود الذي بذلته وحدك في الإعداد للحفل . .

فليحالفك دائما التوفيق .

وفي الفسحة تبعه تلامذة الفصل، وهم يبتسمون ويتهامسون . وقبل أن يصل إلى غرفة المدرسين نادوا عليه :

ـ يا أستاذ يا أستاذ! ثم تحدث إليه أحدهم:

ـ أستاذ محسن. . أيمكنك أن تحضر عيد ميلاد توفيق؟

وقبل أن يجيب عليه محسن كان طالب آخر يقول له:

ـ إن عيد ميلاد توفيق يوم الخميس وقد دعا جميع طلبة الفصل، لكنه لم يدع أحدًا من الأساتذة إلاّ أنت وأبلة عزة، فهل يمكنك الحضور؟

ونظر محسن إلى توفيق الذي لم يكن قد تكلم فوجد وجهه قد احتقن خجلاً.

ـ ولماذا لم تدع بقية المدرسين يا توفيق؟ فقال توفيق متلجلجًا:

ـ أنا أدعو المدرسين الذين أحبهم فقط.

كان محسن سيلبي تلك الدعوة بالطبع ليس فقط لأن عزة كانت مدعوة مثله، ولكن أيضًا لأنه كان يحب طلبته ويود أن يقيم معهم علاقات تتعدى باب الفصل، وإن كان لم يعرف حتى هذه اللحظة أنهم يبادلونه هذا الحب.

أما بالنسبة لعزة فإنه كان قد فقد الأمل في أن تبادله الحب منذ أكثر من ثلاث سنوات، كان بالطبع سيستمتع برؤيتها في الحفل، كما كان يستمتع برؤيتها في المدرسة كل يوم لكنه لم يكن ينتظر أكثر من ذلك.

لم يكن محسن يعرف أن عزة على العكس منه كانت تتطلع إلى هذا الحفل الصغير، الذي كانا سيحضرانه بعيداً عن عيون بقية المدرسين، وقد ارتدت له خصيصًا فستانًا أزرق في لون البحر، كانت تدخره للمناسبات الخاصة، ووضعت فوق عينيها ظلّا لونه أزرق خفيف، أقام علاقة حوار وانسجام مع الفستان وأكد سواد عينيها اللوزيتين وشعرها الأسود الفاحم

الذي تركته يتهدل دون اكتراث فوق كتفيها.

لم يكن محسن قد رأى عزة بهذا الجمال من قبل، فور أن وقع نظره عليها نسي ما كان قد قاله لنفسه من أنه لا ينتظر كثيرًا من هذه المقابلة.. فما إن واتته الفرصة حتى تقرب إليها فاحتضنته على الفور بعينيها دون أن تنطق، ولم ينته الحفل إلاَّ وكانا قد تواعدا على لقاء آخر.

كان اللقاء في صباح اليوم التالي مباشرة.. يوم الجمعة بقلعة صلاح الدين.. كان يومًا مشرقًا خفت فيه البرودة وملأت الشمس الجو بضيائها الذي انعكس على خضرة الحشائش التي تحيط بالمكان فبعثت إحساسًا بالسكينة والابتهاج.

وجد محسن في نفسه شجاعة وثقة بالنفس لم يعهدهما من قبل، فقرر أن يمسك بيد عزة وهما يتمشيان.. لم تعترض، بل أسلمت له يدها في حنان وكأن ذلك حقه الطبيعي.

كانت ترتدي «بلوفر» أصفر فاتحًا في لون عصفور الكناريا، وكان وجهها يكاد يخلو في هذا الصباح الصافي من المساحيق، لكن شعرها الأسود المتهدل على كفيها لم يعرف لحظة سكون واحدة، وسط النسمات الخفيفة التي ظلت تداعبه من اليمين ومن اليسار طوال فترة سيرهما فوق العشب الأخضر.

كم ود محسن لو أنه أخذها فجأة في أحضانه، حتى يسكن هذا الشعر الهائج الذي ظل يشاغل عينيه، كلما حاول تحويل نظراته بعيدًا عن وجه عزة حتى لا يسبب لها حرجًا.

على بعد أمتار قليلة كانت هناك مجموعات من الأطفال يلعبون ويلهون

وهم يتقاذفون بعض ثمار البرتقال كأنها كور للعب:

يا برتقال أحمر وجديد

بكرة الوقفة وبعده العيد!

يا برتقال أحمر وصغير بكرة الوقفة وبعده نغيَّر!

نظر محسن إلى زميلته عزة توفيق التي أحبها في صمت طوال أكثر من ثلاث سنوات، فوجدها تنظر إليه هي الأخرى.. لم تكن عيناها صامتتين، كان فيهما من الأحاديث ما لا تستطيع قوله الأفواه..

أين كانت كل تلك السعادة مخبأة طوال السنوات الماضية؟ كأن زمن الضيم قد مضى ما بين يوم وليلة وجاء الآن وقت العيد والأفراح.

ظل ممسكًا بيدها وهما يمشيان، وكأنه يقتادها إلى مكان يعرفه.. وظلت هي مستسلمة له وكأنها تعرف إلى أين يأخذها. عبر بها البوابة الكبيرة بعد أن قطع تذكرتي دخول، ثم عاد يمسك بيدها داخل أسوار القلعة.

قابلا فوجًا سياحيًا من النساء وقد وقفن كالتماثيل أمام مرشدة مصرية تتحدث فيهن عن تاريخ المكان، بلغة لم يفهمها محسن ولا عزة.. قال إنها إسبانية، بينما قالت عزة: إنها إيطالية، وما هي إلَّا دقائق حتى بعدا عنهن ومرت أكثر من الساعة وهما يتمشيان ويتحدثان.. وأحس كل منهما بأنه يعرف الآخر منذ زمن بعيد.. قادتهما أقدامهما إلى بقعة نائية داخل أسوار القلعة غطت أرضها رمال صفراء ناعمة خالية تمامًا من أية علامات لأقدام البشر، وكأن أحدًا لم يسبقهما إليها منذ عهد الأيوبيين. وجدا نفسيهما وحدهما تمامًا وقد احتضنتهما مباني القلعة التاريخية بأحجارها العملاقة تحميهما من كل متطفل ومتلصص.

توقف محسن عن السير وأحاط خصرها بذراعه فوضعت عزة ذراعها على كتفه. سحبها إليه في رفق، ثم أجلسها على الرمال الذهبية الملساء وقد أسندت ظهرها إلى سور القلعة الكبيرة.

كانت رعشة رقيقة قد بدأت تسري في أوصالها وشعر بلهفة شديدة تجاهها، فاقترب منها بسرعة وأطبق على فمها بينما جاء صوت الأطفال عبر السور العالي:

يا وابور يا مولع..

حط الفحم وأنا أقولًك ولع..

حط الفحم..

وتغيرت حياة محسن عبدالفتاح، أحس أنه يعيش حياة أخرى غير تلك التي كان يحياها.

لم تكن المسألة أنه يوجد في عزة الحب الذي كان يبحث عنه، والحب قادر على تغيير نظرة الإنسان للحياة نفسها، حيث تكتسب ذلك اللون الوردي الذي يزداد بقدر قوة الحب.

لم يكن هذا هو ما حدث لمحسن رغم قوة حبه لعزة ورغم الحياة الوردية التي أصبح يحياها الآن.. كانت المسألة أكبر من مجرد تغير نظرته، للحياة فما علاقة حبه لعزة بالعلاوة التي تقاضاها؟ وكيف يؤدي تغير نظرته للحياة إلى أن ينال حب الطلبة وبقية العاملين بالمدرسة؟ لا، إن الحياة نفسها هي التي تغيرت، ولقد تأكد محسن من أنه يعيش الآن حياة جديدة عليه تمامًا.

كان ذلك هو ما أخذ يراود محسن وهو مستلق في غرفته ينظر إلى «باب التوفيق» في إحدى الليالي الدافئة بعد أن ولت ليالي الشتاء القارسة، التي

طالما عانى منها والتي كثيرًا ما منعته من النوم. . كان الشتاء قد انتهى بلا رجعة، وجاءت عزة بالربيع الذي سرعان ما ازداد دفؤه حتى تحول إلى صيف حار.

عاش محسن مع عزة ثلاثة أشهر كاملة بعد انتهاء السنة الدراسية. . فما إن بدأت إجازة الصيف حتى شعر كل منهما بأنه تعود رؤية الآخر يوميًا ولا يستطيع العيش بدونه ،فأخذا يتقابلان كل يوم ما عدا يوم الجمعة، حيث كان شقيق عزة الأكبر يأتي لزيارة أسرتها مع زوجته وأولاده الثلاثة، فكان هذا اليوم يمر على محسن وكأنه دهر كامل. . كان ينتظر بفارغ الصبر حتى يمضي اليوم بليله الطويل، وتشرق شمس صباح الأسبوع التالي حتى يقابل عزة مرة أخرى.

لكن ها هي الإجازة الصيفية قد انتهت وسيعود المدرسون للانتظام بالمدرسة ابتداء من غد استعدادًا لبداية الدراسة.

وبينما كان محسن راقدًا في فراشه في تلك الليلة من شهر سبتمبر، أخذ يتفحص تفاصيل الباب العظيم الذي أهداه له عم عبده صابر، ثم نهض من مرقده واتجه إليه يتحسسه بيديه فوجد التراب قد بدأ يتراكم عليه فشعر بشيء من الذنب كيف جعلته حياته الجديدة يهمل «باب التوفيق» فلا ينظفه يوميًا كما كان يفعل في البداية؟!

وعلى الفور أحضر محسن ريشة تنظيف، أخذ ينفض بها التراب من فوق الباب الذي كان لايزال في وضعه المستند على الحائط منذ أحضره إلى الغرفة قبل حوالي ثمانية، أشهر ثم أحضر قطعة قماش أخذ يدعك بها المناطق الغائرة في الباب، ثم استدار إلى الجانب الخلفي للباب المواجه

للحائط فوجده متربًا أكثر من واجهته وحاول تنظيفه لكنه لم يستطع لضيق المساحة خلفه فدفع محسن الباب بيده فانفتح فخطا محسن خارجه وأكمل تنظيفه وأغلقه مرة أخرى ثم آوى إلى فراشه.

الحركة الثالثة.. سريع متلاحق

في صباح اليوم التالي صحا محسن عبدالفتاح قبل موعده ليجد آلامًا مبرحة تضربه في كل أجزاء جسمه، تريد إيقاظه من نومه قبل موعده، وشعر بريح باردة تندفع من النافذة التي كان الهواء قد فتحها عنوة أثناء الليل.

ماذا حدث؟ هل حل الشتاء فجأة؟ صحيح أننا في الأسبوع الأخير من سبتمبر لكن الجو لا ينقلب فجأة هكذا بين يوم وليلة.

حاول محسن أن يعود إلى النوم مرة أخرى بعد أن أغلق النافذة فلم يستطع. كان النوم قد ذهب بلا رجعة. ظل شاخصًا ببصره إلى سقف الغرفة يعاني من الآلام التي في جسمه ،ثم لم يجد بُدًا من أن ينهض ويبدأ في الاستعداد للذهاب إلى المدرسة.

كان هذا هو اليوم الأول الذي سيرى فيه عزة بالمدرسة بعد انقضاء الإجازة. كان متلهفًا لرؤيتها في المدرسة من جديد بعد أشهر الحب التي أمضياها معا خلال العطلة الصيفية.

ترى كيف ستبدو؟ هل ستظل كما كانت في العام الماضي؟بالطبع، لا . . في العام الماضي كانت عزة هي الحبيبة البعيدة المنال، أما اليوم فإنها تعود للمدرسة ومعها شيء جديد، شيء شاركا في صنعه معًا طوال الأشهر الأخيرة، ثم بشكل خاص خلال فترة الصيف حين كانا يتقابلان يوميًا.

لكن حين وصل إلى المدرسة لم تكن عزة كما توقع. بدت كما كانت

في العام الماضي. كانت بعيدة وباردة، رمقته بنظرة عابرة ولم تستطع نظرته إليها أن تأسرها. كأنه غير موجود. أو كأن الحب الذي شاركا في بنائه يومًا بعد يوم قد تلاشى ،ماذا حدث؟ حاول محسن أكثر من مرة خلال اليوم أن يتحدث إليها ،لكنه لم يستطع فانتظر حتى نهاية الحصة الأخيرة وخرج مسرعًا من المدرسة في إثرها، كان يعرف بالضبط طريق عودتها إلى المنزل عبر ميدان الجيش إلى شارع الأزهر، حيث محطة الأوتوبيس إلى بيتها بحي السيدة زينب. لحق بها بعد الميدان وقبل أن تصل إلى المحطة قبض بيده على ذراعها وأدارها إليه:

- ماذا حدث؟ ماذا بك اليوم؟

نظرت إليه نظرة فيها دهشة وغضب في آن واحد، وجذبت ذراعها بشدة من قبضته:

- كيف تجرؤ أن تمسك بي هكذا في الطريق العام؟ هل جننت؟ فانتقلت الدهشة إليه والغضب:

- إن لم يكن بيننا شيء فعلى الأقل هناك زمالة في العمل. فردت بسرعة:

- وهل تعطيك الزمالة حق أن تجذبني من ذراعي في الطريق العام؟

- ماذا بك يا عزة؟ ماذا حدث؟

- لم يحدث شيء سوى أنني فكرت مليًا في كل شيء..

- متى؟ بالأمس؟ لقد كنا معًا يوم الخميس ولم أتركك سوى أمس الجمعة، فما ذلك التفكير الذي جعلك تتغيرين هكذا بين يوم وليلة؟

ردت عليه في حدة:

- الذي جعلني أتغير هو هذا الوضع الغريب الذي نحن فيه.. ثم واجهته

وفي عينيها نظرة تحد :

ـ قل لي بربك ماذا سنفعل لتأمين مستقبلنا؟ هل هناك أي أمل في أن نتمكن براتبك وراتبي أن نبني مستقبلاً؟ ألم تفكر في ذلك على الإطلاق؟ هل كنت تتمتع بوقتك معي دون أن تفكر في المستقبل؟

وازدادت دهشته قائلاً :

ـ إن هذا الوضع الذي تتحدثين عنه كان قائمًا منذ البداية، ومع ذلك أحببنا بعضنا، فماذا تغير؟

ـلم تجب عن سؤاله، أعطته ظهرها، وأسرعت خطاها نحو محطة الأوتوبيس فلحق بها مرة أخرى. . :

يجب أن نتحدث. . ماذا حدث؟ لقد تغيرت. .

استدارت مرة أخرى ونظرت إليه نظرة لم يألفها في عينيها من قبل :

ـنعم قد تغيرت.

ـهكذا بين يوم وليلة؟!

كانت قد وصلت إلي المحطة ولمحت أوتوبيسها يستعد للانطلاق، فقالت له بسرعة وقد بدت عليها علامات الضجر :

ـنعم بين يوم وليلة. . كل شيء في الدنيا يتغير بين يوم وليلة. .

وفي ثوان كانت قد اختفت داخل الأوتوبيس واختفي الأوتوبيس في زحام شارع الجيش.

وفي خطى بطيئة ومثقلة عاد محسن إلى بيته على سطح العقار رقم 14 بحارة الدرب الأصفر بالجمالية، وفوق كتفه حمل ثقيل لم يعرف كيف سيحمله في الأيام المقبلة. . على مدخل الحى قابل عليوة البقال جالسًا أمام محله يتشاجر مع بعض زبائنه. . قبل أن يحييه بادره عليوة بالقول :

ـ ألن تدفع ما عليك أنت الآخر ياسي محسن؟ لقد انتظرت طويلاً لكنك لم تدفع ولا «مليم» ألم يأتك أي دخل طوال الأشهر الماضية؟ ولا أي دخل على الإطلاق؟

فقال محسن على الفور حتى لا يستمر هذا الحديث طويلاً أمام الناس :

ـ أعطني مهلة صغيرة عدة أيام فقط ، وسأدفع لك شيئًا تحت الحساب .

فرد عليه عليوة :

ـ يفتح الله! المهلة التي تطلبها ستنتهي غدًا يا أستاذ، وعليك دفع الحساب كله وإلَّا . .

وقبل أن يكمل قاطعه محسن بسرعة :

ـ نعم نعم غدًا إن شاء الله .

فرد عليوة غير مبال بمحاولات محسن إغلاق الموضوع :

ـ وللتذكِرة حسابك أصبح 53 جنيهًا و 72 قرشًا فقط لاغير .

فلم يجب محسن ومضى في طريقه إلى البيت . لكنه عند مدخل شارع المعز وجد جمهرة أمام محل عم عبده صابر . . وما إن رآه أطفال الحي حتى شاوروا عليه قائلين :

ـ ها هو الأستاذ محسن عبدالفتاح .

ـ الأستاذ محسن وصل . . فتقدم إليه أحد أفنديات الحكومة الذين كان السكان قد التفوا حولهم وقال له مقطبًا حاجبيه :

ـ أين «باب التوفيق»؟

فقال محسن :

ـ لماذا؟ ماذا حدث؟

فسأله أفندي آخر وكأنه وكيل نيابة :

ـ أنت متهم بإخفاء الآثار . أتعرف عقوبة تلك الجريمة؟

فقال محسن :

ـ إن عبده صابر . .

لكن الأفندي الأول قاطعه :

ـ عبده صابر قد مات ، والناس يقولون إن «باب التوفيق» عندك أنت ، فإما إنه أخفاه عندك أو أنك سرقته وفي الحالتين . .

فقال محسن في دهشة :

ـ عم عبده مات؟ كيف مات؟ متى؟

ـ أين الباب؟ قل لنا بسرعة أحسن لك . . إننا لم نأت إلى هنا لكي نقص عليك قصة وفاة عم عبده . .

وترقرقت في عيني محسن دمعة لم يلحظها أحد وهو يقول :

ـ لقد كان حيًا يرزق بالأمس فقط .

لكن صوت أفندي ثالث جاءه كالمدفع :

ـ أين «باب التوفيق»؟

فقال محسن مستسلمًا :

ـ إنه عندي

فجاءه الصوت مرة أخرى :

ـ إنه ليس ملكًا لك حتى تضعه عندك .

وانتقلت الجمهرة من أمام دكان عم عبده إلى حارة الدرب الأصفر ، فأخذت أعدادها تزداد مع كل خطوة جديدة ، حيث كان المارة يسألون :

ماذا حدث؟ وحين يسمعون القصة كانوا ينضمون إلى الجمع المتجه إلى

بيت محسن عبدالفتاح لمشاهدة ما سيحدث هناك. وأمضى محسن بقية اليوم يسلم «باب التوفيق» لمندوبي الحكومة، ويكتب الإقرارات ويوقع الأوراق وسط جمهرة أهل الحارة وبعض سكان الحارات المجاورة، ولم ينفض المولد إلاَّ بقدوم المساء فأغلق محسن على نفسه باب غرفته وارتمى في الفراش، بينما سمع من خلف النافذة صوت المطر الذي بدأ ينهمر معلنًا حلول الشتاء.. وفي الفراش أخذ محسن يفكر في حياته هذه.. هي الحياة التي كان يتطلع إليها.. آماله في الشباب لم يتحقق منها شيء. كان يحلم بالنجاح والحب والمال.. وهاهو الآن قد وصل إلى الأربعين ولم يوفق في أي منها.

العرض الأخير

حبيبتي . . يا من ألفت عينيك الصافيتين الحانيتين . . الليلة سأرى عينيك وسط الجمهور من جديد . . الليلة لن تعميني أضواء المسرح المبهرة، ولا كشافاته الساطعة عن رؤية عينيك . . وسط زحام المقاعد في الصالة المظلمة سأرى عينيك مضيئتين مشعتين كنجمتين بارقتين في سماء الليل البهيم .

الليلة أحتاج عينيك اللوزيتين أكثر من أي وقت مضى . . هاتان العينان اللتان صاحبتاني في ترحالي عبر مختلف مراحل هذه الحياة . . منذ بدايتي المتواضعة حتى وصلت إلى قمة المجد .

نعم حبيبتي . . في الماضي لم أعر هاتين العينين اهتمامًا . . فالمرء لا يتوقف كل ليلة لينظر إلى النجوم في السماء . . فقط حين يسقط الفارس في النهاية من على ظهر جواده ويجد نفسه ممددًا على الأرض لا يقوى على الحراك، فهو ينظر إلى السماء . . لأنه يحتاج إلى وميض تلك النجوم . . يحتاج إلى أشعتها لترتفع به من على الأرض إلى أعالي السماء .

واليوم سأسقط يا حبيبتي من على جوادي العجوز . . هذا المسرح العتيد الذي تحملني وتحملته عشرات السنين منذ كان فتيًا وكنت يافعًا . . منذ كان يؤمه الجمهور في كل ليلة، يصفق له حتى تدمى أكفه وأنا أنحني له إجلالاً وتقديرًا، ثم أرفع رأسي أنظر إليه في زهو وخيلاء.

كم ضحيت في سبيل هذا المسرح . . هذا المارد الجائع دائمًا . . الذي لا يشبع نهمه شيء . . نعم ضحيت بحياتي كلها من أجل المسرح.

كم سألوني: لماذا لم تتزوج؟ كنت أقول:

لقد تزوجت المسرح . . وأبناؤك؟ أبنائي هم مسرحياتي . . وأسرتك؟ . . الجمهور هو أسرتي . . لكن ها أنا أسأل نفسي الآن بعد مضي السنين . . أين هي أسرتي؟ أين ذهبت؟ أين ذهب الجمهور؟ .

أجيبيني أنت عن هذا السؤال الذي لا يعرف له أحد جوابًا . . لا يمكن أن تكون هذه الملاهي الليلية وما يشبهها من مسارح قد ابتلعت جمهوري بأكمله . . جمهور المسرح الذي كان يصطف طويلاً أمام الشباك لعله يجد مكانًا في كل عرض لي.

هذا الجمهور كان هنا . . فأين ذهب؟ ربما كنت أنت الوحيدة التي ظلت وفية لفني العظيم . . أو ربما لشخصي المسكين الذي لم يعد يقوى على تحمل عذاب المسرح أكثر من ذلك . . عذاب المسرح الذي لم يعد مسرحًا، بل شيء آخر لا أعرفه.

أنت فقط ظللت على عهدك . . تحضرين كل عرض من عروضي . . تقابلني عيناك في كل ليلة، مضيئتين كنجمة الشمال التي تؤكد للنواتي أنه على الطريق السليم . . أو كالنجم الثاقب الذي يخترق ظلمة الليل معلنًا قدوم الفجر.

في البداية أخفيت حسرتي . . أخفيت فعل السنين بالمساحيق والألوان . . أخفيتها بإنقاص وزني وصبغة الشعر . . الآن سئمت كل شيء . . لمن أحافظ على الصورة القديمة التي عشقها الجمهور إذا كان الجمهور نفسه قد انصرف ولم يعد يأتي .

أين ذهب الجمهور؟ لم تقولي لي يا حبيبتي أين ذهب الجمهور؟ هل هاجر هو الآخر إلى بلاد البترول أم مات ودفن؟ قولي لي بربك أين الجمهور؟ إن المسرح بلا جمهور ليس مسرحًا وإنما قبر موحش لا حياة فيه . . إن هذا لابد هو عذاب القبر الذي يتحدثون عنه وهو عذاب جد شديد . . إنني لن أبقى فيه لحظة بعد هذه الليلة . . سأترك هذا المسرح الذي تخلى عني وعن رسالته السامية بالتدريج . . سنة وراء سنة .

فصار قبرًا موحشًا . . سأذهب إلى حيث لن يراني أحد . . سأذهب إلى حيث لا جمهور ولا أضواء ولا أستار . . كالأفيال التي لا يعرف أحد أين مقبرتها؟ والتي تشعر حين يحين أجلها أن عليها أن تختفي من الوجود، فلا يعود أحد يعرف أين هي؟ ولا أين ماتت؟ . . سأذهب إلى حيث لن تريني ثانية يا حبيبتي . . لكني أنا سأرى دائمًا عينيك الحانيتين . . سآخذهما فربما لم أفز في هذه الدنيا إلّا بهما . . لا . . لا أريد أن أرى دموعًا في هاتين العينين الصافيتين . . إن كل نجم مهما طال به الأمد لابد في يوم ما أن يسقط . . كم استمتعت بالنظر إلى نجوم السماء وهي تأفل من قلب السماء إلى قاع البحر . . تسقط كالثمار التي حان موعدها .

حبيبتي يا من لا تجيبينني . . هل أنت هنا أم لا وجود لك؟ هل ستكونين معي في هذه الليلة . . في العرض الأخير . . أم أنك أنت أيضًا لن تأتي كالباقين؟!

وفاء إدريس!

(1)

من هي وفاء إدريس؟ من هي من بين الصور التي نشرت لها في الصحف والمجلات، وقت قامت بعمليتها الشهيرة ضد قوات الاحتلال؟ . . لقد كانت إحدى هذه الصور لفتاة صغيرة تلف الكوفية الفلسطينية حول جبينها، وقد تدلت فوقها خصلات شعرها الكستنائي في دلال، والثانية لشابة يافعة ذات وجه بيضاوي جذاب ترتدي قبعة التخرج الجامعي السوداء وفي عينيها نظرة تصميم لا تخطئها العين، وأخرى لها داخل سيارة إسعاف، وما بين هذه الصور امتدت حياة وفاء إدريس من قصة حبها الأول وزواجها الفاشل، إلى أن وجدت قضيتها التي اختارت أن تضحي في سبيلها قبل أيام معدودات من عيد ميلادها الـ 27 فدخلت التاريخ كأول فتاة تقوم بعملية فدائية ناجحة داخل إسرائيل، وحطمت بذلك الكثير من القيود الإسرائيلية المنيعة، وأيضًا بعض القيود العربية البالية التي مازالت تحيط بالمرأة.

قالت وفاء إدريس:

ولدت في شهر يناير من عام 1975 بمخيم الأمعري بمدينة رام الله، في مسكن صغير مكون من غرفتين، عشنا فيه أنا وأمي في غرفة، وإخواني الثلاثة في الغرفة الأخرى، وقد عايشت حياة اللاجئين وعرفت قسوة أن يعيش الإنسان بلا وطن، برغم أنه يشعر بأرض هذا الوطن تحت قدميه وفي مرقده، عرفت قسوة أن يعيش الإنسان بلا هوية، برغم معرفته التي لا تقبل الشك بأنه فلسطيني أبًا عن جد، منذ آلاف السنين، كانت أسرتي في السابق تعيش حياة رغدة في الرملة، لكن نكبة 1948 بدلت الحال، ولم أزر حتى الآن ذلك المكان الذي كان الرملة قبل مولدي، فأنا إنسان مغترب لا يعرف لنفسه موطنًا ولا هوية.

أتحدث عن الإنسان، وليس المرأة أو الرجل، لأنه ما من فرق هنا بين رجل مقهور وامرأة مقهورة، القهر في الحالتين يؤدي إلى الانفجار، إلى الانتقام، إلى النضال من أجل التحرر وإحلال العدل والحرية والحق، وتلك كلها مبادئ تعلو فوق النوع والجنس والدين واللون، بل هي تعلو فوق كل مخلوقات الله سبحانه وتعالى، فنجد الفأر بالقهر يثور كثورة الأسد أو النمر، ومثله الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، أو حتى فتاة مثلي في مقتبل العمر.

ومع ذلك فقد دهشت أن وجدت الشيخ أحمد ياسين مؤسس حركة حماس التي رفضت الانضمام إليها يصرح بعد رحيلي بأن المرأة إذا خرجت للجهاد وجب أن يكون معها محرم (!!) وكأن المرأة ليس من حقها أن تثور لوطنها إلّا في حماية رجل.

لا يا سيدنا الشيخ . . فالتاريخ الإسلامي ملئ بالنساء المجاهدات مثل خولة بنت الأزور التي خرجت للجهاد وأطلقت سراح شقيقها دون أن يكون بصحبتها محرم، ألم تنزل عمة الرسول من حصنها لتقاتل رجلاً من الكفار كان قد تسلق حصن النساء وقتلته؟ ألم تشارك أسماء بنت يزيد في المعارك ضد الروم وقاتلت فيها الرجال؟ والآن ما قولك أيها الشيخ الجليل في فتاة فلسطينية مسلمة خرجت للجهاد وحدها فأتت بما لم يأت به الرجال؟! إن العدد الأكبر من العمليات الفدائية التي شهدتها انتفاضتنا الثانية والتي بدأت في سبتمبر عام 2000 ، كان في الأراضي الفلسطينية المحتلة بالضفة الغربية أو بغزة . . أما أراضينا داخل إسرائيل فكانت حصنًا منيعًا لم يستطع الفدائيون الرجال اختراقه إلَّا في القليل النادر، لكن ها قد سقطت هذه العوائق أمام إرادتي وتصميمي دون أن يكون معي محرم، وآن الأوان أن تسقط بعض العوائق المعنوية التي مازلتم تضعونها أمام المرأة.

ومع ذلك فأنا لست المرأة الفدائية الأولى في تاريخنا الفلسطيني المجيد . . فقد سبقتني الأخت إيمان غزاوي التي حملت عبوة ناسفة زنة 5 كيلو جرامات داخل مسحوق غسيل بالمحطة المركزية بتل أبيب، وكان من الممكن أن تنجح في عمليتها الفدائية كما نجحت أنا، لولا أن تنبه لها أحد الحراس وألقى القبض عليها، وسبقتنا أخريات كثيرات من عام1967 ، حتي بداية انتفاضة الأقصى الثانية، منهن دلال المغربي، التي كنت أحتفظ بصورتها في غرفتي وفاطمة برناوي، وليلى خالد، ولمياء معروف، وزهرة سعيد حسن، وعطاف عليان.

ولقد كنت أعرف تاريخ هؤلاء جميعًا، كما كنت أعرف أيضًا تاريخ

الرجال، فأنا كما قلت لا أعرف تلك الفروق التي يضعها البعض بين الرجل والمرأة، لكني كنت أيضًا أعرف الحب، حب الوطن وحب المرأة للرجل، أما حب الوطن فقد عرفته مذ عرفت اسمي وهويتي، وأما حب الرجل فقد عرفته مذ عرفت أحمد فليفل ابن خالتي الذي كان يكبرني بأربع سنوات فقط، لكني كنت أشعر بأنه الرجل الناضج الذي أرغب في الزواج منه، كان شابًا رياضيًا وسيمًا ذا شارب أسود كثيف، وكنت أرى فيه الحبيب والزوج، كنت أرى فيه أيضًا الأب الذي لم أعرفه والذي قتله الإسرائيليون وأنا بعد طفلة. . وقد بادلني أحمد حبًا بحب منذ كان عمري 13 عامًا. . فإذا ما بلغت الـ16 فاتحت والدتي في رغبتنا في الزواج.

والدتي هي الحاجة صفية مبروك التي يعرفها المخيم عندنا باسم أم خليل نسبة إلى أخي الأكبر الذي يكبرني بسبع سنوات.
والذي أمضي بالسجون الإسرائيلية 11 عامًا ومازال مطلوبًا القبض عليه، وبرغم حب أمي لابن شقيقتها فإنها رفضت زواجي منه في هذه السن المبكرة رفضًا باتًا، قائلة إنني لن أتزوج أحمد ولا غيره قبل أن أكمل تعليمي الثانوي على الأقل.

كان ذلك منذ أكثر من عشر سنوات، لكني مازلت أذكر انفعال أمي التي كانت في الستين من عمرها، ولديها انسداد في شرايين القلب، وهي تقول لي: كم من الفتيات تزوجن فكان هذا آخر عهدهن بالتعليم؟ أنا أريدك أن تسلحي نفسك بالعلم يا وفاء، فمعركتنا عسيرة وطويلة والغلبة فيها للمتعلم الذي يعرف كيف يتعامل مع العصر، وليس فقط لمن يملك السلاح فرددت: أنا لن أترك تعليمي يا أمي. . لا التعليم الثانوي ولا الجامعي،

سترين . . ستكون ابنتك متعلمة . . لكني أريد الزواج من أحمد!

لكن الأم لم تقتنع، ولم تشأ أن تجازف بمستقبل ابنتها الوحيدة ذات الجمال والذكاء، فمن بين أبنائها الثلاثة أتم خالد تعليمه ولم يتمه خليل، وإن كانوا جميعًا قد انخرطوا في المقاومة.

كانت وفاء تعرف أنه إزاء تصميم أمها وأخيها الأكبر خليل فإن زواجها دونه الأهوال، كانت تعرف أنها لن تتزوج من أحمد إلَّا عنوة، وكأن صورة وفاء الشابة الناضجة التي ترتدي قبعة الجامعة وتحمل في عينيها نظرات التصميم قد ظهرت مبكرًا لوفاء الفتاة وهي مازالت ذات الخصلات المتهدلة لتقول لها يجب أن تصنعي حياتك بنفسك، ولا تتركي الآخرين يصنعونها لك!

فردت عليها الفتاة: لكن أمي لا تريد إلَّا صالحي . . فقالت لها الشابة الجامعية: القضية ليست ما إن كان ما تريده أمك هو صالحك وإنما القضية هي من الذي يخطط لك حياتك . . أنت فلسطينية، أفلا يكفيك أن أمتك كلها تتخذ لها القرارات دون أخذ رأيها منذ أكثر من نصف قرن من الزمان؟! أنت فلسطينية، يجب أن تأخذي زمام الأمر في يدك . . فتلك حياتك وأنت التي ستسيرينها وفق إرادتك . .

فقالت الفتاة في تردد: ألا أستمع إلى نصيحة أمي أو أخي؟ . . فجاءها الرد:

ولم لا . . فلتستمعي إلى رأي كل من يهتم بأمرك، فإذا اقتنعت صار هذا الرأي هو إرادتك، فهل اقتنعت بأن عليك إرجاء زواجك من أحمد إلى حين انتهائك من الدراسة؟ قالت الفتاة بسرعة: لا، لم أقتنع . . سأتزوج أحمد

وسأثبت للجميع أنني قادرة علي الزواج والدراسة في الوقت نفسه.

وهنا كانت وفاء الفتاة الصغيرة قد توحدت مع وفاء الفتاة الجامعية ذات الإرادة والتصميم، كانت الصبية قد نضجت وصارت شابة تعرف طريقها لما تريد.

كانت وفاء قد عقدت العزم على إعمال إرادتها الحرة فذهبت إلى أخيها خليل في سجنه وأخبرته بأنها ستتزوج أحمد برغم كل شيء، وعادت وأخبرت أمها بقرارها، وخلال أيام معدودة كانت مع أحمد تحت سقف واحد تعيش أجمل أيام حياتها والتي لم تكن تعرف أنها ستكون قصيرة إلى هذا الحد.

مع زواجها أحبت وفاء الحياة وبدأت ترى الجمال في كل شيء من حولها، في سماء الصيف الصافية التي تعلو مسكن زوجها وفي زهرة النرجس ذات العطر الأخاذ التي تنبت وحدها بجوار جدار المنزل، كانت وفاء فتاة مرحة لا تفارق الابتسامة شفتيها، ولم يكن يعكر من صفوها إلَّا الاحتلال الصهيوني الغاشم والجاثم على صدر أمتها رجالًا ونساء وأطفالًا وشيوخًا.

لكن يبدو أن السعادة في حياة الفلسطينيين لا تدوم طويلاً فقد كان أحمد يتطلع إلى الإنجاب، بينما رأت وفاء رغم حبها الجارف للأطفال تأجيل ذلك إلى ما بعد الانتهاء من دراستها، كان جميع أطفال المخيم يأتون إلى بيتها لتناول الحلوى واللعب معها.. لكنها لسبب ما لم تكن مستعدة بعد للإنجاب.

وتعود وفاء إلى الحديث فتقول: هل كان السبب الحقيقي وراء عدم رغبتي في الإنجاب هو إتمام تعليمي؟.. الحقيقة أنني لم أكن أعرف، فقد كان هناك شيء ما يثنيني عن الإنجاب لسبب لم أكن أعلمه آنذاك.. لكني

عرفته بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات. . عرفته وأنا أحمل المتفجرات بين ذراعي في شارع يافا بالقدس الغربية فقبل ثوان معدودة من الانفجار المروع الذي أحال جسدي إلى أشلاء متناثرة، وجدت نفسي أقول: حمدًا لله أنني امتنعت عن الإنجاب حتى لا أترك أولادي أيتاما. . وأحسست بأن حياتي كلها كانت تسير وفق تخطيط مرسوم لم أكن أعرفه في مقتبل العمر وقت تزوجت من أحمد.

كان عدم الإنجاب هو الصخرة التي تحطم عليها زواج وفاء، فقد كان أحمد مصممًا على الإنجاب، ولم يكن يرى أن دراسة وفاء سبب كاف لعدم الإنجاب.

وفي ليلة هادئة ضمت الزوجين في عش الزوجية، قال أحمد لوفاء: إني أحبك حبي لأرض فلسطين. . لأشجار الزيتون الصامدة. . للبيارات التي تتضوع بعطر أزهار البرتقال. . لكني أريد ولدًا. . أولادنا أسلحة في وجه الصهاينة. . فلماذا لا تريدين الإنجاب؟قالت وهي تنسحب بهدوء من بين ذراعي زوجها: لا أعرف. . لا أعرف. . كل ما أعرفه هو أنني لا أريد الإنجاب الآن. . واحتدم النقاش بينهما حتى وصل إلى نقطة أطلق فيها أحمد القذيفة التي أودت بحياتهما الزوجية في الليلة نفسها. . فقد أخبر وفاء بأنه ينوي الزواج عليها من أخرى تنجب له ولدًا؛ فهذا حقه الذي يمنحه له الدين في مثل هذه الحالة.

وتوارت آخر أحلام الفتاة الجامعية التي لم تقبل لكرامتها ما طرحه زوجها، فطلبت الطلاق في التو واللحظة، بنفس التصميم الذي كانت قد طلبت به من أهلها الزواج منه قبل بضع سنوات.

وخرجت وفاء من بيت أحمد فليفل إلى بيت والدتها على بعد 400 متر داخل نفس المخيم. . دون أن تنكسر أو يلين تصميمها على مواصلة دراستها، لكنها شغلت حياتها بالقضية بعد أن أيقنت أن القضية الوطنية لا تنفصل عن القضية الاجتماعية، وأن الشعب لا يمكن أن يتحرر من الاحتلال العسكري إذا كانت الأفكار الرجعية مازالت تحتل رأسه وتسيطر على أفكاره. . أدركت وفاء أن معركتها ـ بحكم أنها امرأة ـ معركتان. . معركة خارجية مع العدو ومعركة داخلية مع التخلف. .

وتقول وفاء: وأدركت صحة مقولة والدتي بأن سلاحنا الأول في المعركة هو العلم، فأكملت تعليمي الجامعي بعد انفصالي عن أحمد، وتخرجت في جامعة النجاح الفلسطينية، ومضت حياتي وفق ما رسمته. . لكني كنت كثيرًا ما أشعر بالوحدة، وفي ساعات الليل الطويلة وأنا راقدة في فراشي أستمع إلى إحدى أغاني أم كلثوم أو إلى صوت فيروز. . أو أقرأ شعرًا لنزار قباني أو رواية لنجيب محفوظ. . كان يراودني إحساس دفين بأن حياتي فارغة. . وأنني مازلت أبحث عن نفسي. . فأنا لم أعد تلك الفتاة الصغيرة ولا أشبعتني فتاة الجامعة.

ويصمت صوت وفاء إدريس. . لكن الحوار بين الفتاة ذات الخصلات الكستنائية والشابة ذات النظرات الناضجة المعبرة عن الإرادة يستمر. . كل منهما تبحث في الأخرى عن هويتها. . عن قضيتها. . عن رسالتها في الحياة. .

إلى أن قررت وفاء التطوع في الهلال الأحمر الفلسطيني فكانت صورتها الثالثة.

(2)

كانت مجلة «باري ماتش» الفرنسية هي أول من نشر صورة أخرى لوفاء، هي تلك التي تظهرها داخل عربة إسعاف تابعة للهلال الأحمر الفلسطيني وهي تقوم بقياس الضغط لإحدى الفتيات التي سقطت مغشيًا عليها في إحدى الغارات الإسرائيلية، وقد أضافت المجلة بهذه الصورة التي تناقلتها بعد ذلك مجلات وصحف أخرى، صورة جديدة لصور وفاء إدريس التي نشرت في البداية.

ففي صورة وفاء إدريس داخل عربة الإسعاف كانت قوة الإرادة المرتسمة على وجهها الجميل تزيد كثيرًا على تلك التي ظهرت في صورتها عند التخرج في الجامعة، فبينما ظهر والد الفتاة المصابة في خلف الصورة ينظر في ألم إلى حال ابنته وهي تتلقى إسعاف وفاء، كانت عينا وفاء تعبران عن القوة والتصميم وهما تنظران إلى الأفق البعيد، كانت تفكر فيما هو أسوأ من حال الفتاة التي ترقد أمامها، كانت تفكر في العشرات الذين لم تستطع إسعافهم ومنهم ذلك الشيخ العجوز الذي فصلت نيران الجنود الإسرائيليين رأسه عن جسده ،وكانت هي التي أحضرت بيديها الرأس المفصول إلى حيث سقط الجسد، حتى تسلم جثة الرجل إلى أهله كاملة، تلك اللحظة الحاسمة وهذا المشهد الرهيب لم يكن سيبرح مخيلة وفاء بقية حياتها، فكلما سقط أمامها جريح رأت فيه ذلك الشيخ ورأسه الذي تدحرج بعيدًا عن جسده وهو مخضب بالدماء، وكلما غمض لها جفن في الليل أضاء الظلام ذلك المشهد مرة أخرى في مخيلتها.

في ذلك اليوم عادت وفاء إلى بيتها واجمة لا تقوى على الكلام فهرعت

إليها أمها ،أم خليل والقلق يستبد بها: ماذا بك يا ابنتي؟ ماذا فعلوا بك؟ لكن وفاء لم تجب، لم تكن تقوى على الكلام، ونظرت أم خليل إلى جسد ابنتها تتفحصه موضعًا موضعًا، لكنه بدا سليمًا معافى، فقالت لها الأم: إنك بخير يا ابنتي، ليس بك جروح، فردت عليها وفاء بصوت خافت خنقه التأثر والانفعال:

الجرح ليس في جسدي يا أمي وإنما في روحي! فصرخت الأم الملتاعة: حاشا لله! إن جروح الجسد تلتئم أما جرح الروح فلا شفاء منه، فماذا تقولين؟! وانفجرت وفاء في البكاء وهي ترتمي بين ذراعي أمها، وشكت أم خليل في أن يكون خسيس قد اعتدى على شرف ابنتها الوحيدة، لكن وفاء قالت لها إن ما أصابها كان أسوأ من الاغتصاب، وحين روت لأمها مشهد الشيخ العجوز وجمت أم خليل ولم تعلق بكلمة، فقد استدعت وفاء بكلماتها ذكرى أليمة لأم خليل لم تشهدها وفاء، وإن كانت تعرفها جيِّدًا، فمنذ نحو 25 عامًا حين كانت وفاء طفلة في الثانية من عمرها دخل جنود الاحتلال في منتصف الليل على والديها وأخذوا يقلبون أثاث منزلهما رأسًا على عقب ببنادقهم، ويدوسون أغراضهم بنعالهم حتى أحالوا البيت خرابًا، وحين صرخت أم خليل تستغيث من الفزع الذي أصابها وسط الليل، وضع أحد الجنود فوهة بندقيته على صدرها فاشتط زوجها على إدريس غضبًا وهجم على الجندي، فما كان من جندي آخر إلَّا أن دق عنق الأب بالسونكي الذي كان مثبتا في مقدمة بندقيته فسقط رأسه على الأرض أمام زوجته، كما سقط رأس ذلك الشيخ أمام وفاء بعد ذلك بـ 25 عامًا، ربع قرن من الزمان والمشهد واحد يتكرر ربما كل يوم، ربما من جيل إلى جيل في نفس الأسرة . . في نفس الشعب .

ولم يكن مصرع الشيخ الذي شهدته وفاء في ذلك اليوم هو أول تجربة لها في مواجهة مثل هذه المواقف، فقد شاهدت طوال عملها بالإسعاف أناسًا يموتون أمام عينيها وأطفالًا تقطع أوصالهم دون لحظة تردد واحدة، ومع ذلك فقد كانت وفاء قد تطوعت للقيام بعمليات الإسعاف من أجل الحيلولة دون وقوع هذه الحوادث، من أجل محاولة الإبقاء على حياة الأطفال والشيوخ والرجال والنساء، فماذا كانت جدوى كل ما قامت به من إسعافات، إذا كان الرجال في النهاية يسقطون صرعى أمام عينيها مثل ذلك الشيخ ومثل أبيها من قبله؟!

كانت وفاء قد التحقت بالهلال الأحمر منذ نحو ثلاث سنوات الآن، وقد تطوعت لدراسة الإسعافات الأولية وحصلت على الشهادة التي أهلتها للانضمام إلى الهلال الأحمر الفلسطيني ،فأصبحت تذهب إليه ثلاث مرات في الأسبوع، وكانت تعلم مسبقًا أن عملها لن يكون سهلًا، وحين أصيبت مرتين خلال السنوات الثلاث التي شاركت فيها في الإسعاف لم تفاجأ ولم تكترث، رغم أنها أصيبت ذات مرة بالرصاص المطاطي في رأسها، لكن ماذا يهم؟ لقد لازمها الصداع لمدة أسبوع كامل ثم ذهب، كانت تعرف أن أمام كل إصابة من إصاباتها أثناء عمليات الإسعاف هناك حياة العشرات من المواطنين الفلسطينيين الذين كتب لهم عمر جديد بعد أن نجحت في إنقاذهم، كانت تنام على أصوات الطائرات وهي تقصف معسكر الأمعري الذي تسكنه مع أسرتها لتصحو على صوت الدبابات وهي تهدم المنازل على سكانها وهم بعد نيام، وكان ذلك يدفعها إلى التفكير فيما تقوم به، وبدأت وفاء تشعر بأن عملها بالإسعاف لم يعد يكفيها ،وأحست

أن عليها أن تفعل ما هو أكثر من أجل وقف سيل الدماء التي يريقها الاحتلال الإسرائيلي البغيض مع فجر كل يوم جديد.

تحدثت وفاء إلى صديقتها هيفاء التي كانت قد اعتزلت الحياة واستقالت من مدرسة الأطفال، التي كانت تعمل بها بعد الصدمة التي أصابتها على إثر اغتيال عملاء المخابرات الإسرائيلية زوجها، وهما مازالا في شهر العسل. وأشارت عليها هيفاء بأن تنضم إلى حماس أو الجهاد إذا كانت تريد أن تنتظم في صفوف المقاومة المسلحة، وكثيرًا ما دعتها هيفاء إلى بعض الجلسات الدينية التي كانت تحضرها والتي لم يكن بها غير النساء، وقد لبت وفاء دعوتها ذات مرة، لكنها خرجت من اللقاء وقد تأكدت أن هذا ليس طريقها فقد شعرت في داخلها برغبة قوية في مكافحة بعض التفسيرات الدينية الخاطئة قدر الرغبة التي كانت لديها في تحرير وطنها من الاحتلال، وجدت وفاء نفسها أقرب إلى منظمة فتح كبرى فصائل المقاومة وأقدمها، والتي كانت نواة حركة التحرير الفلسطينية، لكنها وجدت أنه مثلما كان أعضاء حماس يعترضون على خروج النساء في العمليات الفدائية لأسباب لم تقتنع بها، فقد اعترض أيضًا رؤساؤها في فتح على مخاطرتها بحياتها، ولنفس السبب الذي كان يسوقه مسئولو حماس وهو أنها امرأة، وفي أحد الأيام نشبت مشادة قوية بينها وبين أحد النشطاء في فتح وهو عدنان جدع، فقالت له وفاء:

ما الذي يميزك عني كمواطن فلسطيني؟ نحن سواء، بل دعني أقل لك إن الإسرائيليين قد يخشون النساء أكثر؛ لأننا نلد كل يوم أبناء يزيدون من تعداد الفلسطينيين بما يهدد بسقوط فكرة الدولة اليهودية من أساسها، وإذا

أحسنا تربية هؤلاء الأبناء فسيشبون وهم يتطلعون إلى الشهادة في سبيل الوطن، وحين يستشهدون فإن الزوجة أو الأم هي التي تواصل إعالة الأسرة وحدها، فمن تظن أخطر على إسرائيل نحن أم أنتم؟!

لكن عدنان رفض مع ذلك منحها السلاح خوفًا عليها وقال لها: إن أعداد الرجال مازالت كافية للقيام بالأعمال الفدائية، فلماذا نعرض النساء للخطر؟ فنظرت إليه وفاء نظرة تحد وقالت: لأن من النساء من قد تستطيع القيام بما لم يقم به الرجال! وخرجت وفاء دون أن تنتظر ردًا من عدنان.

كان عدنان قد ألمح لوفاء أكثر من مرة أنه يشعر تجاهها بعاطفة خاصة، وكانت وفاء كثيرًا ما تسأل نفسها وهي تفكر فيه: لماذا تشعر أنه قريب إلى قلبها، وهل سيحتل في يوم ما مكان أحمد في حياتها والذي ظل شاغرًا طوال السنوات الثلاث الأخيرة؟ لكن في الوقت الذي كان شعورها تجاه عدنان يتزايد مع كل يوم جديد كان الشعور بالغضب تجاه ما يحدث لوطنها يتصاعد في وجدانها بنفس القدر، وكثيرًا ما كانت تعود لبيتها في حالة ثورة عارمة، وإن كانت ثورة عاجزة أمام ما تقوم به قوات الاحتلال من أهوال، أو ما كانت تتعرض له هي شخصيًا حين كانت القوات الإسرائيلية تعوق وصول عربة الإسعاف التي تحملها إلى مواقع الجرحى، وكم من مرة وصلت وفاء إليهم بعد عناء لتجدهم جثثاً بلا حياة بعد أن نزفت جروحهم حتى الموت.

وسرعان ما لاحظت عائلتها أن وفاء تغيرت، كانت في السابق تهتم بمظهرها، وكانت تهوى شراء الملابس الجديدة وأدوات التجميل، كانت تعشق كل ما هو جميل في الحياة، كانت تعشق الزهور البرية وتعشق أطفال

المخيم الذين كانوا يهيمون بها، والذين كانت تحرص على توزيع الحلوى عليهم كلما جاءوا يسألون عنها في البيت.

لكن وفاء بعد حادث الشيخ العجوز لم تعد كما كانت، فكرت مليًا فيما ينبغي أن تفعله لتلقن الجميع درسًا لن ينسوه:

أولًا الإسرائيليين، ثم بعد ذلك كل من وقفوا في طريق رغبتها في التصدي للاحتلال المدجج بالسلاح، لا.. لن تقنع بعد اليوم بعمل الإسعافات الأولية لمن هم على حافة الموت، لكل منا لحظات يغضب فيها لكي يعود بعد ذلك إلى هدوئه. لكن غضب وفاء كان قد وصل إلى مرحلة اللاعودة وكان ذلك قبل عيد ميلادها الـ27 بأيام معدودة، فأعدت عدتها دون مساعدة من أحد واتخذت قرارها، وقبل يوم عيد ميلادها بيوم واحد كان كل شيء جاهزًا.

كان يومًا شتويًا عاديًا.. بدأ بطرقات خفيفة على باب البيت من ابنة الجيران الطفلة رويدة التي كانت قد جاءت تقدم لوفاء صينية مطبق صنعتها لها والدتها للإفطار، وتذكرت وفاء كيف كانت تعشق المطبق، وهي طفلة وكيف كانت والدتها تأخذها إلى محل لاطيمو الشهير لتشتري لها قطعة من تلك الحلوى الفلسطينية المصنوعة من رقائق الخبز المحشوة بالجوز، وأخذت وفاء رويدة بين ذراعيها وقبلتها وطلبت منها أن تشكر والدتها على هذا الإفطار الجميل، الذي أعاد إليها ذكريات طفولتها، وبعد أن تناولت رويدة الإفطار مع وفاء وأم خليل جلست الطفلة على السرير ترقب وفاء وهي تتزين أمام المرآة المعلقة على الحائط استعدادًا للخروج، استعدادًا لما كان ينتظرها.. وبعد برهة قالت الطفلة: إنك اليوم أجمل من كل الأيام،

فابتسمت وفاء واحتضنت الطفلة بين ذراعيها بقوة، ثم قالت: أتعرفين لماذا يا رويدة؟ لأن اليوم هو عرسي، فسألتها الطفلة ببراءة: أليس الغد هو عيد ميلادك؟

قالت وفاء: غدا هو عيد ميلادي، أما اليوم فهو عرسي فضحكت الطفلة وهي تقول: إن حياتك إذن مليئة بالأفراح، فقالت وفاء: نعم يا رويدة من اليوم ستكون حياتي كلها أفراحًا فقد مضى عهد الأحزان! . . وأتمت وفاء زينتها وخرجت إلى عرسها.

(3)

كانت وفاء إدريس قد أخبرت والدتها حين خرجت من البيت صباح يوم 27 يناير، ألا تقلق عليها، لأن لديها أعمالًا مهمة في ذلك اليوم قد تجعلها تتأخر عن موعدها المعتاد، وقبلت الأم ذلك متمنية لها التوفيق دون أن تدرك ما كانت تعنيه ابنتها، لكن حين علمت ظهر ذلك اليوم بنبأ العملية الفدائية التي وقعت في شارع يافا بقلب القدس الغربية، بدأت أم خليل تقلق، حاولت الاتصال بها عدة مرات على هاتفها المحمول، لكنه كان يظل يرن إلى أن ينقطع الرنين دون أن تجيب، فاتصلت الأم بمكتب الهلال الأحمر وببعض أصدقاء وفاء، الذين كانت تعرف أرقامهم، لكن دون جدوى، وسرعان ما ذاع في العالم كله أنه يعتقد أن من قامت بالعملية الفدائية كانت امرأة، وضربت الأم على صدرها فورسماعها الخبر وصرخت صرخة حيوان جريح، وهي تصيح: ابنتي! . . . . ابنتي! . . . . وخرجت إلى الشارع كالمجنونة، فهرع إليها الجيران يحاولون طمأنتها قائلين إنه قد يكون هناك خطأ، فمثل هذه الأعمال لا يمكن أن تقوم بها

امرأة، لكنها لم تنصت إليهم فقد كانت تعلم أن وفاء إدريس ليست كأي امرأة.

كانت وفاء قد ودعت والدتها وخرجت من البيت لتتوجه إلى مقر الهلال الأحمر الفلسطيني، لم تشأ وفاء أن تتعلق كثيرًا برقبة أمها كما كان يدفعها شعورها في ذلك الصباح، عسى أن يثير ذلك بعض الشك في نفس الأم التي كانت تقلق عليها من مجرد التأخير لساعة أو اثنتين، عن موعدها المعتاد، قبلت أمها بسرعة على وجنتيها، وأسكتت الصوت الذي كان ينتحب في داخلها: كم أحبك يا أمي! كم سأفتقدك يا أعز من لي في الدنيا! وبدأ قلبها ينخلع فخرجت مسرعة وكادت تصفع الباب خلفها، فقد كانت تعرف أنها بحاجة في ذلك اليوم لكل قوتها، لكل شجاعتها، ولم تكن تريد أن تضعف الآن أو تلين، وحين وطئت أقدامها أرض الشارع تذكرت أنها لم تطعم الحمام فصعدت بسرعة إلى السطح، وما إن رآها الحمام حتى أخذ يرفرف بأجنحته البيضاء حولها، هل كان فرحًا بالطعام القادم، أم كان يرتعد لما كانت ستقوم به وفاء في ذلك اليوم، أم كان يزفها إلى مهمتها الوطنية الجليلة؟

أخذت وفاء حمامة بيضاء بين يديها، كان جناحها قد انكسر أمس الأول فربتت عليها برفق قائلة: لا عليك يا حمامة السلام البيضاء، غدا ستستطيعين الطيران مرة أخرى وستعودين إلى أعشاشك في أفياء القدس القديمة، غدا ستنفتح السماء أمام جناحيك فتطيرين فوق بحر الجليل، أو تحطين فوق قدس الأقداس.

ومرة أخرى انتزعت وفاء نفسها من براثن العواطف التي كانت تجيش في

وجدانها هذا الصباح وتركت البيت.

كان اليوم هو الأحد، وكانوا ينتظرونها بالهلال الأحمر لتخرج بالعربة الخاصة المجهزة بمعدات الإسعاف، التي كثيرًا ما كانت قوات الاحتلال تعترضها للتفتيش، أو لمجرد تعطيلها عن مهمتها، فتصل إلى موقع الجرحى بعد فوات الأوان، لكن اليوم لن يعترضها أحد، فاليوم ليس كغيره من الأيام، اليوم لن تكتفي بإسعاف الجرحى الذين كانوا يسقطون في رأم الله حيث مخيم الأمعري، الذي كانت تعيش فيه، بل ستذهب إلى القدس، وهناك سيسقط الكثير من الجرحى الذين لن يسعفهم أحد، نعم سيقولون عنها إرهابية، لكن المئات الذين كانت تحاول إسعافهم خلال عملها بالهلال الأحمر فتنجح في تضميد جروح البعض منهم، ويلفظ البعض الآخر أنفاسه بين يديها من عنف الضربات التي تلقوها ووحشية الإصابة، هؤلاء جميعًا من أصابوهم أو قتلوهم ليسوا إرهابيين، فهم إسرائيليون، والإسرائيليون ليسوا إرهابيين، فقط الفلسطينيون هم الإرهابيون!

وصلت وفاء إلى مقر الهلال الأحمر في موعدها، فوجدت مسعفة أخرى في انتظارها هي عبلة، التي قالت لها إن عدنان سأل عنها، فغيرت وفاء الموضوع قائلة: هل وصلت أي إشارات بأن هناك إصابات اليوم؟ قالت لها عبلة: ليس بعد، فتركتها وفاء واتجهت إلى النافذة تنظر إلى الأفق البعيد وتسأل: لماذا سأل عني عدنان اليوم؟ لماذا يا ربي كل هذه العواطف في هذا اليوم بالذات؟ أتضرع إليك يا ربي أن تقتلع من قلبي كل عاطفة إنسانية حتى لا أضعف، حتى لا أتراجع، حتى لا أفشل في إتمام مهمتي التي لا يعلم عنها أحد شيئًا إلاَّ أنا وأنت يا بارئي يوم الدين!.. لماذا يارب

جعلته يسأل عني اليوم؟ إن كنت تريدني أن أتمم مهمتي فلا تجعلني أضعف أمام عدنان اليوم يارب! . . ولم تكد وفاء تنتهي من هذه المناجاة الصامتة، حتى جاءتها عبلة تقول إن عدنان يطلبها على الهاتف، ما هذا الإصرار؟ إنها ليست عادته، هل يمكن أن يكون قد عرف ما كانت على وشك أن تقوم به؟ كيف ذلك وهو سر لا يعلمه أحد؟ وترددت وفاء لحظات في الرد على المكالمة، لكنها بعد ثوان معدودات مشت في خطى ثابتة إلى حيث الهاتف في الغرفة المجاورة، والتقطت السماعة فجاءها صوته: وفاء؟

فردت: نعم هذا أنا، أهناك شيء يا عدنان؟ قال: نعم هناك شيء، وشيء مهم أيضًا، وسقط قلبها: ألم يكن هذا الشيء يمكن أن ينتظر حتى نلتقي بدلا من أن تطلبني مرتين أثناء العمل؟ فجاءها الرد: لا، لم يكن من الممكن أن ينتظر، فالأمر مهم، قالت في ثبات: وما هو؟ قال في شيء من التردد: هو أمر مهم لكنه بسيط. . لقد لاحظت أنك في آخر لقاء لنا مشيت وأنت غاضبة مني لأني لم أستجب لطلبك المشاركة في الأعمال الفدائية، أرجو ألَّا تسيئي الظن بي يا وفاء، أرجو ألَّا تتصوري أنني لا أثق في قدراتك أو في قوة إرادتك، لم يكن هذا هو السبب. . قالت: لقد قلت لي بالحرف الواحد: إنك امرأة ونحن مازال لدينا طلبات كثيرة من الرجال للقيام بالأعمال الفدائية لذلك فليس لدينا حاجة للنساء، قال: نعم، قلت ذلك، لكن. . . . قاطعته: لكن ماذا؟ إن الاحتلال لا يفرق بين رجل وامرأة، والقذائف الصاروخية التي يطلقها الإسرائيليون تغتال الرجل والمرأة والشيخ والطفل معًا، والبيوت تهدم فوق رءوس الجميع، والتاريخ لم يسمع حتى الآن بثورات أو حركات مقاومة قام بها الرجال وحدهم.

كان لدى وفاء الكثير مما كانت تريد أن تقوله، لكن عدنان كان يفكر في شيء آخر، قال: أعرف كل ذلك يا وفاء ولكن، قاطعته ثانية: لكن ماذا؟ قل لي بربك، قال: لكن الحقيقة أنني كنت أخشى عليك.

فصمتت وفاء ولم ترد ،مما شجع عدنان على مواصلة حديثه: أو أن الحقيقة أنني كنت أخشى على نفسي.. أخشى أن أفقدك.. دعيني أقلها لك الآن في الهاتف يا وفاء، مادمت لم أستطع أن أقولها لك قبل ذلك في مقابلاتنا.. وفاء أنا أحبك.. إني.. إني أرغب جديًا في الزواج منك.. وسقطت السماعة من يد وفاء وهي تصرخ في صمت: الرأفة يارب العالمين! ودخلت عبلة على صوت وقوع سماعة الهاتف على الأرض، فتمالكت وفاء نفسها وردت على عدنان ثانية أمام عبلة بشيء من الرسمية: أشكرك يا عدنان على توضيحك الأمور، لقد ملأتني الآن ثقة في نفسي، قال: نعم يا وفاء أنا أثق بك، وأعلن أنك تستطيعين أن تقومي بما لايستطيعه الرجال.

وكان ذلك كل ما كانت تحتاجه وفاء في هذه اللحظة، فنسيت وجود عبلة وصرخت في الهاتف: أحبك يا عدنان! وخرجت مسرعة من المبنى فصاحت عبلة خلفها: أين أنت ذاهبة؟ قالت دون أن تعود أدراجها: لديّ مشوار مهم، إلى اللقاء يا عبلة! فتبعتها عبلة بردها الذي لم تسمعه وفاء: إلى اللقاء يا وفاء.

وبعد أقل من نصف ساعة كانت وفاء تعبر الحاجز الأمني الذي يحيط برام الله في طريقها إلى نابلس، وقد استوقفها جندي إسرائيلي عند مدخل المدينة وطلب أوراقها فأعطته بطاقة الهلال الأحمر، فنظر إليها مليًا، ثم أخذ يدور حولها وسألها بالعبرية عما أتى بها إلى نابلس؟ فأوضحت له أنها

لا تتحدث العبرية فاستبقاها قليلا ثم تركها، فأكملت طريقها إلى القدس.
كانت وفاء قد عقدت العزم على أن تكون عمليتها في قلب إسرائيل التي يقال إنها حصن منيع ضد العمليات الفدائية التى تجري يوميًا في أراضي السلطة الفلسطينية، والتي كانت تتم عن طريق أكثر من شخص، وذلك بأن يقوم شخص بتسليم العبوة الناسفة إلى شخص آخر إلى أن تصل إلى من سيقوم بالعملية بنفسه، ومن الممكن أن تكون هناك امرأة أو أكثر في هذه السلسلة، لكن العبوة كان ينتهي بها المطاف دائمًا في يدي رجل هو الفدائي الذي سيضحي بنفسه، لكن وفاء لم تكن ستفعل ذلك، لم تكن سترضي بأن يقتصر دورها على نقل العبوة الناسفة من شخص إلى شخص، بل كانت هي التي ستحصل بنفسها على العبوة، وهي التي ستفجرها أيضًا، ولقد تمكنت بالفعل من الحصول على القدر الكافي من المواد الناسفة التي تمكنها من أن تقوم بعملية لا يستهان بها، ومن مصادر لم تكن تعرف ما تخطط له وفاء بينها وبين نفسها، فقد تعلمت وفاء أن المواد الناسفة يمكن أن توضع في علبة بسكويت، أو في زجاجة زيت زيتون، أو داخل سندويتش، أو في أنبوبة معجون أسنان، أو حتى داخل قالب صابون مفرغ من الداخل، وقد تمكنت وفاء من نقل عبوتها الناسفة إلى داخل القدس على مراحل وعلى عدة أيام، مستخدمة هذه الوسائل وغيرها، إلى أن اكتملت لديها الكمية اللازمة للقيام بعملية تفجير كبيرة اختارت لها شارع يافا المزدحم بالمارة، وإذا كانت عبوتها قد اكتملت قبل عيد ميلادها بيوم واحد فلم يكن هذا اختيارها.

وصلت وفاء إلى مشارف القدس، وهنا خضعت ليس فقط للتفتيش العادي، وإنما أيضًا لأشعة الكاميرات تحت الحمراء التي يوجد منها ما

لا يقل عن 300 كاميرا بالقدس القديمة وحدها، تتوزع بين مختلف أنحاء المدينة، وتمكنت من اجتياز نقاط التفتيش بسلام، فذهبت تستجمع مكونات عبوتها الناسفة من مختلف مخابئها التي كانت قد وضعتها فيها في زيارات سابقة، وبعد قليل كانت تسير في شارع يافا وهي تلف جسدها الرقيق بكمية من المتفجرات يمكن أن تحدث ثقبا في جبل، وكان دفاعها الأكبر هو ابتسامة الرضا التي ارتسمت على وجهها، والتي لم تكن توحي لمن يراها بأنها تخبئ شيئًا داخل ملابسها، إلى درجة أنها دخلت أحد محال الأحذية وجاءها البائع يسألها عما تريد، لكنها وجدت المحل في ذلك الوقت هادئًا لا زحام فيه، فقالت للبائع: ليس عندك ما أبحث عنه، وخرجت في هدوء تبحث عن هدفها في مكان آخر، ومرت من جانبها سيارة سمعت من مذياعها صوت فيروز ينطلق بكلمات الشاعر سعيد عقل: الآن الآن وليس غدًا.. أجراس العودة فلتقرع.. أبواق أجراس تقرع قد جن دم الأحرار.. ونظرت حولها فوجدت فوجا من الناس قادمًا في اتجاهها، فأسرعت إليهم وقد ضغطت على المفجر، وفي أقل من ثانية كان انفجار مروع يهز أرجاء المدينة ويحيل جسد وفاء أشلاء تناثرت في الأجواء كرذاذ عطر زهرة النرجس، التي كانت تنمو إلى جانب جدار بيتها، أشلاء ورذاذ أخذ يتجمع في السماء ليوحد إلى الأبد ثلاث صور: الأولى لفتاة صغيرة تتدلى خصلاتها الكستنائية فوق كوفيتها الفلسطينية، والثانية لخريجة جامعة النجاح الناضجة، والثالثة للفدائية التي حملت تاريخ معاناة أمتها كلها لتصعد بها إلى السماء روحًا واحدة متحدة منذرة بخلاص ربما بات قريبًا لفلسطين والأمة العربية بأسرها.



محمد الدرة وسيارته الحمراء

خذني معك نشتري السيارة الجديدة. . خذني معك. . أرجوك ياأبي!

هكذا قال الطفل الفلسطيني محمد الذي لم يكن قد أكمل عامه الـ 12 بعد لوالده جمال الدرة الذاهب إلى سوق السيارات بالقرب من مستعمرة نتساريم اليهودية بغزة. . لكن والده قال له:

ابق أنت هنا يا محمد وسأعود إليك بالسيارة بعد قليل. .

قال الطفل: لكنك وعدتني أننا سنشتريها معًا. . أرجوك خذني معك. . أريد أن أتفرج على السيارات في السوق وأختار معك سيارتنا. . رد الأب بشيء من الحزم: ليس هذه المرة. . فسأله الطفل في براءة: لماذا؟. . إنك تأخذني معك في كل مكان فلماذا لا تريدني معك هذه المرة؟ إنك لن تشتري سيارة مرة أخرى، فقال الأب: أخشى عليك يا ولدي من نيران الجنود الإسرائيليين، فأنت مازلت صغيرًا وأنا أحبك ولا أريد أن أفقدك. .

قال الطفل غاضبًا :

بل أنا كبير، ألا تقول لي دائما إنني رجل؟! وصمت الابن قليلا، ثم قال : إنني لن أقذف أحدًا بحجر اليوم، سآتي فقط لشراء السيارة، ثم أعود معك إلى البيت، ما الذي سيدفع الإسرائيليين لقتلي؟!

فصمت الأب بدوره حائرًا ما بين منطق ابنه ومعرفته الشخصية بأحوال البلاد وما يجري فيها، ثم لاحظ الأب عيني ابنه وقد اغرورقت بالدمع الذي حاول إخفاءه عنه كي لا يكرر عليه مقولته بأن الرجال لا يبكون، فاحتضن الأب ابنه محمد في صدره، ثم قال وقد انتقل الدمع إلى عينيه : نعم، أنت رجل كما قلت وسآخذك معي!

كان الأب يعلم أن ابنه مهووس بالسيارات. . لم يكن يحب المدرسة كثيرًا في سنه الصغيرة هذه، كان يذهب إليها تحت إلحاح والده، لكنه ما إن كان ينتهي من دروسه حتى يأخذ دراجته التي يتخيلها سيارة ويجوب بها شوارع غزة مقلدًا بفمه صوت نفير السيارات حينًا وصوت سرينة سيارة الشرطة حينًا آخر، وفي يوم قال جمال لابنه :

لدي خبر سيسعدك كثيرًا. . سيكون لدينا سيارة قريبًا، فأنا أدخر الآن المال اللازم لشراء سيارة وعما قريب سأخذك معي إلى سوق السيارات ونشتري السيارة معًا، ولم تسع الدنيا فرحة الطفل فأخذ يجري حول الأب ويداه الصغيرتان موضوعتان على عجلة قيادة خفية تدور يمينًا ويسارًا وتطلق نفيرها في كل اتجاه، وفي اليوم التالي كان محمد الدرة يروي لكل أصدقائه في المدرسة أنه ذاهب عما قريب مع والده إلى سوق السيارات لشراء سيارة.

وها هو اليوم قد جاء، فقد اكتمل لدى جمال الدرة المبلغ اللازم لشراء السيارة، ستكون بالطبع مستعملة، لكنها على أي حال سيارة.

أريدها حمراء يا أبي! قال الأب: سنبحث أولًا عن الماركة يجب أن تكون السيارة «سوبارو» فهناك صديق لي في العمل اشترى سيارة «سوبارو» ووجد أنها تتحمل كثيرًا وقد شاهدتها معه وجربتها أيضًا. قال الطفل وفي عينيه نظرة قلقة: لكنها قد لا تكون حمراء فرد عليه الأب:

إذا لم تكن حمراء فسنطليها معًا باللون الأحمر. فانفرجت أسارير الطفل وهو يتخيل نفسه واقفًا مع والده أمام السيارة يطليانها معًا باللون الأحمر الذي كان يحلم به.

كان جمال الدرة يعمل في مشروع إسكاني بالقرب من تل أبيب، وكان يدخر من أجره كل شهر مبلغًا يضعه جانبًا لشراء السيارة، كان يشعر بأنه دائمًا موضع اتهام من الإسرائيليين أصحاب المشروع، لكن المقاول الفلسطيني المشرف على المشروع كان يدافع عنه لمعرفته بحاجته للمال، وفي بعض الأحيان عندما كان يشتد التوتر السياسي بين الإسرائيليين و الفلسطينيين كان الإسرائيليون يطلبون منه عدم المجئ في اليوم التالي، فكان يبقى في غزة حيث يقيم مع عائلته بمعسكر البراج الفقير الذي عاش به طوال عمره، ويقوم بالإنفاق من المال الذي ادخره، إلى أن يعود المقاول لإقناع الإسرائيليين بقبوله في العمل من جديد.

كان جمال الدرة يتطلع إلى اليوم الذي يسود فيه السلام أرض فلسطين، عندئذ قد يستطيع أن ينتقل من العيش في معسكر اللاجئين الذي ولد به كما ولد به ابنه أيضًا إلى منزل محترم في إحدى مدن الدولة الفلسطينية الجديدة،

هناك من زملائه العمال من تركوا البلاد وذهبوا يبحثون عن رزقهم في الخارج، بسام وعدنان ذهبا إلى الخليج، وناصر ذهب إلى ليبيا، لكنه هو فضل البقاء في غزة، كان يحب أرض وطنه، الأرض البهية كما يسميها شيوخ المعسكر، وكان يقول إنه ولد بها وسيموت بها، كان في صباه أحد أطفال الانتفاضة، وقد شاهد صورته ذات مرة في إحدى الصحف الأجنبية مع مجموعة من الصبية في الضفة الغربية، لكنه منذ تزوج انشغل بالعمل من أجل أسرته، وأقلع عن العمل السياسي، وقد أخذه عمله اليومي، مثل الكثير من الفلسطينيين إلي بعض المدن الإسرائيلية وسط مناخ سياسي ساد العالم العربي بأن السلام قارب علي أن يتحقق، وهكذا ذهب جمال الدرة إلى تل أبيب فكان يمضي النهار هناك عاملًا للبناء ثم يعود في المساء إلى معسكره بغزة.

كان جمال كثيرًا ما ينظر إلى ابنه وهو يلهو بدراجته متخيلًا أنه يقود سيارة، ويسأل نفسه: ترى هل سينعم محمد وإخوانه بالسلام في هذه الأرض التي سالت فيها الدماء طوال ما يقرب من قرن كامل من الزمان أم أنه سيظل مثله حتى سن الـ 37 بلا دولة، بلا هوية، بلا بيت؟!

لا ليس لدي اليوم سيارة سوبارو، عد إلى غد أو بعد غد وسأكون قد أحضرت لك السيارة المطلوبة، هكذا قال بائع السيارات في السوق، فرد عليه جمال: لكني أعمل في تل أبيب ولا أستطيع أن أجيئك إلّا يوم العطلة وهو السبت، فقال له البائع: إذن سأنتظرك يوم السبت المقبل وستكون سيارتك موجودة، وكان محمد هو الذي تكلم هذه المرة قائلا:

إننا نريدها حمراء من فضلك! فقال له البائع: ألا يكفيك اللون الأحمر

الذي أصبح يخضب كل شبر في البلاد؟ لكن الطفل لم يفهم، وفي طريق العودة سأل محمد والده: هل ستسمح لي بعدم الذهاب إلى المدرسة يوم السبت المقبل لآتي معك؟ هذه المرة لا تحتسب؛ لأننا لم نشتر السيارة.. فوعده الأب بذلك وركبا معًا سيارة تاكسي للعودة إلى المعسكر، لكن ما هي إلّا لحظات حتى كانت شوارع المنطقة قد تحولت إلى ساحة قتال تتطاير فيها طلقات النيران في كل اتجاه، صرخ محمد من هول المفاجأة، فقال له والده أن يربط جأشه، ويتصرف كرجل، وقبل أن يكمل الأب كلامه كانت رصاصة قد اخترقت زجاج السيارة الجانبي وهشمته ففتح الأب باب السيارة على الفور وهرع إلى الخارج حاملًا معه ابنه الصغير، لكن وابل النيران لم ينقطع، أخذ الأب يجري متفاديًا الطلقات المسعورة، لكنه كلما ذهب في اتجاه وجد طلقات الجنود الإسرائيليين تتعقبه، ولم يصدق ما رآه بعينيه:

كانت هناك دبابات في الشوارع وما كان يصوب لصدور الفلسطينيين كان صواريخ وليس فقط رصاص البنادق، لكنه مع ذلك كان يتصور أن النيران الموجهة إليه ستتوقف فور أن يكتشفوا أنه غير مشارك في هذه المعارك التي فوجئ بها في طريق عودته، وفور أن يدركوا أنه لا يحمل سلاحًا، وفورأن يكتشفوا أن ما يحمله الأب بين ذراعيه هو طفل صغير لا يقذف أحدًا بالحجارة، وإنما يريد فقط أن يرى سيارة والده الحمراء، لكن النيران استمرت بلا هوادة ودون أن تفرق بين فلسطيني يحمل السلاح وفلسطيني يبتاع سيارة حمراء، فصرخ جمال الدرة في الجنود باللغة العبرية التي كان يجيدها:

توقفوا.. توقفوا حتى يلفت نظرهم إليه، هو الأعزل الذي لايحمل

سلاحًا أو يلفت نظرهم إلى الطفل، لكن النيران استمرت كالشلال الهادر، فبدأ محمد يصرخ من الصدمة ولم يقل له والده هذه المرة إن الرجال لا يبكون، فلم يكن هناك رجال، كان هناك فقط ضحايا يحاولون إنقاذ أرواحهم من هجمة وحوش مفترسة لا تسمع ولا ترى ولا تعرف قلوبها الرحمة، لكن بينما ينقض الوحش على الفريسة في لحظة فينهي عذابها على الفور، فإن وابل النيران الإسرائيلية استمر يطارد الأب وابنه طوال 45 دقيقة كاملة، وهما يصرخان ويجريان من شارع إلى آخر كالمخلوقات المذعورة أمام هذه الهجمة المتوحشة.

ومرت عليهما تلك الدقائق الـ 45 وكأنها 45 سنة، بل وكأنها تاريخ المعاناة الفلسطينية كلها منذ وعد بلفور عام 1917 وحتى الآن، مرورًا بكل المذابح والمجازر التي عرفها الآباء والأجداد والإخوان والأخوات من دير ياسين إلى صبرا وشاتيلا.

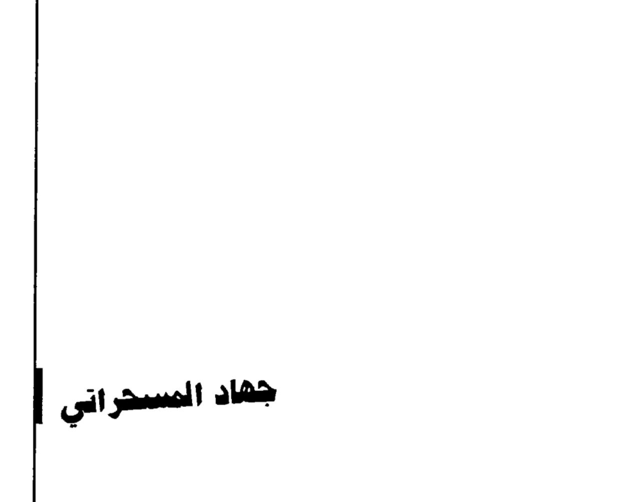
ووسط الأتربة المتصاعدة في الشوارع من جنازير الدبابات العملاقة، لمح الأب صندوق صفيح للقمامة إلى جوار حائط على الجانب المقابل من الرصيف يمكن أن يكون ساترًا له ولابنه الصغير، فأخذ محمدًا بين ذراعيه وهرع إلى خلف الصندوق وما هي إلا لحظات حتى وجد معهما في نفس المكان المراسل الصحفي لوكالة رويتر البريطانية. وفكر محمد أن المكوث بجوار القمامة قد يكون أسلم وربما أنظف أيضًا من العيش مع تلك المخلوقات المتوحشة التي لا أمان لها، لكن المراسل حين وجد نفسه في صحبة فلسطينيين أدرك على ما يبدو أن تلك ليست أفضل صحبة بالنسبة له في مثل هذه الظروف فهرب إلى مخبأ آخر.

وما إن خرج المراسل الأجنبي من وراء صندوق القمامة، حتى انتبه بعض

الجنود الإسرائيليين إلى الفلسطينيين المختبئين خلف الصندوق، فأخذوا يمطرونهما بوابل من النيران التي لا تتوقف، فاخترقت ثماني طلقات جسد الأب في أماكن متفرقة وأصابت طلقة واحدة بطن الطفل الصغير، فصبغت المشهد كله باللون الأحمر الذي كان يريده الطفل للسيارة الجديدة.

وهذه المرة كان محمد رجلًا.. لم يصرخ.. لم ينطق بكلمة.. لكنه كان قد ترك باغتياله الوحشي رسالة بليغة فهمها والده جيدًا، فحين أفاق جمال الدرة من غيبوبته وجد نفسه في مستشفى الشفاء بغزة وجاءه المقاول الفلسطيني يعرض عليه أن ينقله إلى أفضل مستشفى إسرائيلي، لكن جمال رفض وقال للمقاول: لن أتعامل مع هؤلاء القتلة بعد اليوم. أريد أن أنتقم لابني.. لن أقبل أن يتحول محمد إلى مجرد رقم في الإحصاء اليومي لعدد القتلى.. ثم فجأة أجهش الأب بالبكاء:

ما ذنب ولدي؟ كل ما كان يريده هو سيارة حمراء.. كان يمكن أن يكون حيًا الآن.. لو كان عندهم رحمة.. قليل من الرحمة.



جهاد المسحراتي

انتهى شهر رمضان في مدينة نابلس بفلسطين قبل أن ينتهي في بقية العالم الإسلامي بأسبوع، حين اغتالت رصاصات الاحتلال الإسرائيلي مسحراتي المدينة جهاد ناطور وهو يطوف الشوارع الضيقة بمخيم عسكر الجديد للاجئين. . كان ذلك في الثالثة فجرا وقت أن كان سكان المخيم مازالوا نيامًا وبينما كان جهاد يجوب أزقة المخيم حاملاً معه طبلته ومناديًا بصوته القوي الجميل على سكان المخيم الذين كان يعرفهم واحدًا واحدًا أن أفيقوا من نومكم فقد آن وقت الصحيان. . ! أفيقوا قبل أن يضيع الأوان. . ويبدو أن مثل هذا الحديث لم يكن ليعجب جنود الاحتلال فأطلقوا رصاص بنادقهم على المسحراتي الشاب فأردوه على الفور قتيلا.

كان جهاد ناطور في الثانية والعشرين من عمره وكان نجارًا لكنه كان عاطلاً؛ فمنذ اجتاحت قوات الاحتلال مدينة نابلس ضمن إعادة احتلالها

لمدن الحكم الذاتي بالضفة الغربية ،توقفت كل الأعمال ولم يعد أحد بحاجة لنجار ولا حداد، كان الناس يبذلون جهدهم اليومي في محاولة الدفاع عن حياتهم وفي حماية أسرهم ولم يعد أحد يفكر في صناعة دولاب للملابس أو في إصلاح شباك أو باب.

كان جهاد نجارًا ماهرًا يتمتع بحس فني راق وبأنامل سحرية جعلت كل من صنع له قطعة أثاث فخورًا بما اقتنى لقاء ثمن زهيد، كان يكفي جهاد ولم يكن يجادل فيه كثيرًا فقد كان إعجاب الناس بما صنعت يداه هو أجره الحقيقي وثوابه الذي لم يكن يساويه مال.

ويبدو أن الإنسان حين يكون فنانًا فإن فنه لا يكون مقصورًا على جانب واحد فقط في الحياة فالأديب قد يكون محبًا أيضًا للفن التشكيلي، والموسيقار قد يكون متذوقاً أيضاً للشعر، وهكذا كان الحال مع الشاب جهاد ناطور الذي لم تقتصر موهبته الفنية على أنامله وحدها، وإنما كان صاحب صوت ساحر كان جميع سكان المخيم يطربون له ولم يكن هناك حفل زواج أو عيد ميلاد إلاّ وطلب أصحابه من جهاد أن يحيي لهم الحفل.

ومنذ توقف العمل في كل شيء بعد اجتياح قوات الاحتلال لنابلس والمخيمات المحيطة بها ،توقف أيضًا جهاد ليس فقط عن العمل وإنما أيضاً عن الغناء، أما توقفه عن العمل فقد فرض عليه فرضًا لكن توقفه عن الغناء كان بمحض إرادته؛ إذ كيف يغني ومدينته محتلة؟ كيف يغني وقوات الاحتلال تدوس بأحذيتها العسكرية القذرة شوارع مخيمه وأزقته؟ كيف يغني والجنود ينتهكون كل الحرمات حتى الحياة ذاتها التي يغتصبونها يوميًا بحجة الدفاع عن النفس ضد الإرهاب الفلسطيني، بينما إذا قتل جندي

إسرائيلي واحد قامت الدنيا كلها ولم تقعد؟! . . لا لن يغني جهاد قبل أن تتحرر مدينته. ولقد كان لمخيم عسكر الجديد مسحراتي عجوز هو عم نذير الذي كان يقوم بعمله هذا من قبل النكبة التي حلت بالبلاد عام 1948، لكنه بعد الاجتياح الأخير لنابلس يبدو أن قلبه لم يعد يتحمل زيادة الهم ففاضت روحه قبل الشهر المبارك بأسبوع واحد فقط ،وهنا توجه أهل المخيم إلى جهاد يطلبون منه القيام بعمل المسحراتي بدلا من عم نذير، فمن غيره بصوته الجميل يستطيع أن يحل محل عجوز المخيم الذي عايش التاريخ كله من سنوات العشرينيات حين كانت فلسطين جنة هادئة تتضوع بأريج بيارات البرتقال وأزهار النرجس في الجليل، إلى عصرنا التعس هذا الذي سالت فيه الدماء وتهدمت فيه المباني على رءوس سكانها واتهم فيه المقاومون بالإرهاب.

لكن جهاد رفض أن يحل محل عم نذير وقال لزملائه: أنا لن أغني قبل أن يزول كابوس الاحتلال الرابض على أنفاسنا، فقال له أحد زملائه وكيف تتصور أن يزول هذا الكابوس ما لم نعمل جميعًا على إزالته . . إن غناءك سيوقظ النيام من سباتهم كي يقوموا بأداء فروضهم!

وقال له آخر: إن المقاومة لا تكون بالامتناع عن الغناء وإنما بحمل السلاح، وأنت سلاحك هو صوتك فإذا أطلقته سيستمع إليك الناس.

وأحضر صديقه رائد ابن عم نذير دف والده القديم وقال له:

سأطوف معك المخيم كما كنت أفعل مع والدي، إلى أن نوقظ كل النيام.

ومع الليلة الأولى في شهر رمضان خرج جهاد مع صديقه رائد وقد حمل أحدهم دُفًا وحمل الثاني طبلة، وأخذ جهاد ينشد الأدعية والتراتيل وينادي

على سكان المخيم بأسمائهم، فكان كل منهم يلبي الدعاء ويجيب على جهاد بأنه قد صحا إلى أن يهب جميع السكان من رقدتهم.

ومرت ليالي الشهر المبارك ليلة وراء ليلة وسكان المخيم يطربون كل ليلة لصوت جهاد وإنشاده الجميل، حتى كان البعض ينتظر بلا نوم حتى يستمتع بصوت جهاد دون أن يفوته منه شيء ،وكان البعض الآخر يخرج من بيته ليطوف مرددا وراءه أناشيده.

وسرعان ما ذاع صيت المسحراتي الشاب جهاد ناطور في مدينة نابلس كلها، حتى بلغ مسمع سلطات الاحتلال فأدركت على الفور خطورة الموقف وتربص بعض الجنود بجهاد وزميله رائد في أكثر من ليلة وكانوا يفتشونهما فلا يجدون معهما شيئًا غير دف وطبلة فيضطرون لإخلاء سبيلهما.

كان قد مضى أكثر من نصف الشهر المبارك حين انتظر الجنود ظهور جهاد قبيل الفجر ،لكنهم هذه المرة كانوا ينوون وضع حد لهذا الموضوع وظل الجنود يطوفون شوارع المخيم الضيقة بحثًا عن جهاد الذي كان يأتيهم صوته من كل صوب، ثم أخذوا يتعقبون الصوت إلى أن عثروا عليه في النهاية، وكان ذلك عند بزوغ الفجر بعد أن كان قد أتم مهمته.

هجم أحد الضباط الإسرائيليين على جهاد واختطف منه طبلته وقذف بها على الأرض فتحطمت، بينما أخذ ضابط آخر دف رائد وقذف به عاليًا وقبل أن يسقط على الأرض كان قد أطلق عليه عدة أعيرة نارية فتناثرت أشلاؤه في الهواء ،ثم اتجه كبير الضباط إلى جهاد وزميله وقال لهما في المرة القادمة إذا أحضرتما مثل هذه الآلات البدائية المزعجة فسنفعل بكما ما فعلنا بها ثم ضربوهما بكعوب بنادقهم وألقوا بهما على الأرض وانصرفوا.

لكن روح المقاومة كانت قد سرت في دماء المسحراتي الشاب ولم يكن ليقبل أن يخرس صوته بعد اليوم ،وفي الليلة التالية كان يطوف المخيم كما تعود منذ بداية شهر الصوم بدون طبلة ولا دف، كان سلاحه الوحيد الآن هو صوته القوي الجميل الذي تعود عليه سكان المخيم والذي كان يسطع في الليل معلنًا قرب الفجر وداعيًا سكان المخيم من زملائه اللاجئين الفلسطينيين أن ينهضوا إلى الفلاح.

وجن جنون قوات الاحتلال فأعلنت في اليوم التالي مباشرة حظر التجوال في نابلس وضواحيها ،من غروب الشمس وحتى فجر اليوم التالي لكن صوت المسحراتي ظل يعلو في موعده كل ليلة موقظًا الناس من سباتهم.

وفي ليلة ليلاء لا قمر فيها ولا نجوم خرج جنود الاحتلال يتعقبون المسحراتي الشاب ليضعوا حدًا لهذا الموضوع، وما إن عثروا عليه حتى صوبوا إليه بنادقهم، وقالوا له: لقد خرقت حظر التجوال المفروض على المخيم، وقبل أن يرد عليهم كانوا قد أطلقوا عليه النيران فسقط على الفور غارقًا في بركة من الدماء وجرى رائد الذي كان دائمًا إلى جواره يطلب النجدة ليسعفوا زميله جهاد قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ولكن الجنود منعوا سيارة الإسعاف من دخول المخيم قائلين إن هناك حظر تجوال ينبغي أن يحترم.

وحين طلع الصباح وجد سكان المخيم جهاد ملقى على قارعة الطريق وقد فارق الحياة وإلى جواره صديقه رائد يبكي، وحين جاء عيد الفطر بعد انتهاء شهر رمضان المبارك كان مخيم عسكر الجديد بنابلس قد خيم عليه حزن ،مقيم لكن سكانه كانوا قد صحوا جميعًا وأخذوا يستعدون للفلاح.. للكفاح.

إزيدورا.. و الأوتوبيس

و قصص أخرى

تحتفل " الدار المصرية اللبنانية" من خلال هذا الكتاب، بربع قرن من السرد القصصي للكاتب الكبير محمد سلماوي، فقد صدرت المجموعة القصصية الأولى لمحمد سلماوي عام 1983م بعنوان "الرجل الذي عادت إليه ذاكرته"، ثم تتابعت بعد ذلك مجموعاته القصصية: " كونشرتو الناي" في عام 1988م و" باب التوفيق" في عام 1984م و " رسائل العودة " في عام 2000م و " وفاء إدريس " في عام 2002 م و " شجرة الجميز " في عام 2002 م.

وقد تنوعت المجموعات القصصية لمحمد سلماوي مابين الواقع والخيال، ومابين الحاضر والتاريخ، ومابين الموضوعات الاجتماعية السياسية والعاطفية الحالمة، كما تنوع أيضًا الأسلوب الفني الذي انتهجه في كل من هذه القصص مابين السرد الواقعي والقصص الرمزي والواقعية السحرية.

وتقدم " الدار المصرية اللبنانية " في " إزيدورا....والأوتوبيس " بعض أجمل القصص التي وردت في المجموعات القصصي لمحمد سلماوي، بالإضافة إلى بعض القصص الجديدة قبل، والأخرى التي نشرت في الصحف والمجلات، لـ أي من المجموعات السابقة، وهي قصص يجمع بينها موهبة أدبية متميزة في السرد القصصي لكاتب كبير نتمنى في السنوات المقبلة.





الدار المصرية اللبنانية